مشكِلَات الحضَارة
من أجل التغيير

الطبعة الأولى
1445 هـ / 2024 م

اسم الكتـــاب: مشكلات الحضارة من أجل التغيير
المـــؤلـــف: مالك بن نبي
موضوع الكتاب: فكر
عدد الصفحات: 144 صفحة
عدد المـــلازم: 9 ملازم
مقاس الكتـاب: '20*14
عدد الطبعـات: الطبعة الأولى
الترقيم الدولي: 978-9921-815-375

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

دار البشير للثقافة والعلوم
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

مشكِلَات الحضَارة
من أجل التغيير

مالك بن نبي

دار البشير

تقديم

في مُتَنَاوَل هـذا الكتَـاب، نَجـد تحليـلًا عميقًـا لكَيْفِيَّـة التغيـير، بدأهـا الكاتـب بالتغيـير في الاقْتِصـاد في واقِعنـا الحَـالي، فقَـد ذَكَـر مَالِك بـن نبي أنَّ ماركـس نفسـه أوضح خصائـص طريقته تقريبًـا في هذه العبارات، الفلاسـفة حتـى الآن فـسَّروا العالم، أمَّا نحـن، فنُرِيد تَحْويله، فالاشْـتراكِيَّة لا يُمكِن النَّظر إليهـا كعِلـم إلا في هـذا الإطـار، أعنـي بقـدر مـا تقتضيـه التقنيـة الاجتِماعِيـة لتَحقِيـق فِكـرة جديدة. فتفسـيره للعَالَم عَـبْر مسـلَّمَتَيْه: المادية الجَدَلِيَّـة والمادية التاريخيـة، يتضمَّـن منـذ البدايـة منهجًـا ميتافيزيقـا، أفضى في جوانـب أخرى لعنـاء كبـير، كذلك العَنـاء الـذي ألَمَّ بالعالم حينـما أراد أن يجدِّد ضِمْن التفسـير الماركـسي بعـض ظواهر نظريتـه، في علم الفلـك الفيزيائي، في كتابـه)العالم – الحيـاة– العقل).

المَذْهب الاقتصادي الاجتماعي المُنتَظر

لقـد أَوْضَـح مالـك بـن نبـي المَذَاهِـب الاقتِصَادِيـة ومشـكلاتها في كل مؤلفاتـه، فنَجِـده هنـا يوجَـب أن نضَـعَ حـدًّا لبعض العـادات السـيئة، وعلى الأخَّـص فيـما يتعلَّـق بالعـادات البيروقراطيـة التـي تضَـع أعبـاءً إضافيـة لا فائِـدَة منهـا في مناهـج التفكـير (التخطيط) والتنفيـذ عندنـا، أو في إدارتنـا للقطـاع العـام.

وعليْنَـا أن نَفْهَـم هُنَـا أن كل ثَغْـرة مـن ثغراتِنـا تحـدُث في جهازنـا وفي مجتمَعِنـا فراغًـا لا بـد أن يمـلأه شيء ما. والشَّـعب يسُـد حتمًا هذا الفـراغ، إمَّا

عـلى حِسَـابِ ضَمِـيره، وإمَّا على حِسَـاب مالِـه؛ فعـلَى صَعِيد الضرائـب، تأتي صُورة (المواطـن الـذي يُلاحِقُـه الشرطي) فتعطـي مِثـالًا ليـس عـلى حـدث مـادِي فحَسـب، بـل عـلى حَـدَث أخلاقِـي كذلك.

العارضة

تحـت هـذا العنوان نجدُه يؤكِّد لنـا أن الحَرْب لا يَنتَصر فيها بالأسـلحة المادية فقـط، كالبُنْدُقِيَّـة والمِدفـع أو حتـى الطائـرة. فبعْـد أن انتَـصر هنيبعـل في (كان)، وصـل إلى أبـواب رومـا، فصـاحَ في مجلـس الشـيوخ، وقَـدْ اعـتَرَاه الهَلَع، صَيْحة الخَـوف التي لا تـزالُ مدوَّنة في كُتُـب التاريخ «هنيبعل على أبـواب روما»! ولكنْ مَلَـذات (كابوا) (كامبانيا) التـي تراخَـى فيها ضُبَّـاط هذا الاسـتراتيجي العظيم، وتقصـيرات مجلِـس الشـيوخ القرطاجـي، أنقـذت رومـا التـي انتهت، بـأن مَحَت قرطاجـة مـن خريطة (الوجـود)، كما هـو معروف. ولكـن هذه العوامل النفسـية والاجتماعيـة والسياسـية، تقـوم بدور أكـبَر بكثـير، في عصرنا الـذي لا يتعلَّق فيه مَصِـير الحَـرب بالجَبهة فحسـب، بـل بالخطوط الخلفِيَّـة أيضًا.

الإمبريالية

وفي حديـث المؤلـف عـن الاسـتعمار نجـده يقـرر أن الإمبرياليـة بملفهـا تحكُـم العـالم، منذ بضْـع سـنوات، عندما أَمَّـت إحدَى الـدول العربيـة شركةً مـن شركات البـترول في أراضيهـا، أثـار الدَّهْشَـة وجـود ملـف في وثائـق الشركـة، يضُـمُّ كل أسـماء الأشـخاص، الذيـن يُمكِـن أن يخدمـوا أو يؤمنـوا مصالِحَهَـا في البلـد. لا شَـكَّ أن ملَّـف الإمبريالية يجـب أن يكون أكـبر أهميَّة، لكـي يَسـتطيع أنْ يُسَـاعِدها في كل العمليـات؛ في زَمَـنِ الحَـرب، كـما في زَمَن السِّـلْم، عـلى الجبهـة، كـما في الداخل.

التّخطِيط الدّقيق

وهـو الآفـة التـي يجـب أن نحتـاط لهـا في عالمنـا العـربي، فالسـويد قـد حقَّقَـت منـذ انتهـاء الحـرب العالميـة الثانيـة تحـوُّلًا جذريًّـا في بنيتهـا الزِّرَاعِيَّة بالتَّخطيـط المُنَاسِـب. إذ حلَّـت منتجـات الأشـجار مـكان سـائر الزراعـات الغذائيـة. وتحوَّلـت كل أراضيهـا الصالحـة للزراعـة إلى غابـات، جعلـت من هـذا البلـد واحـدًا مـن أوائـل المنتجـين لمادة (السـليلوز) في السـوق العالمية. إذن فالتخطيـط في بلـد في طَـوْر النمو، يهدف أساسًـا إلى تحريـك كامل طاقاته ومـوارده البشريـة والماديـة تحريكًا يؤدي إلى خَلْـق ديناميكيـة اجتماعِيَّة. ونذكر فقـط أن عـدَدَ الحـوادث هبـط في سـنة ١٩٦٧ بنسـبة ٣٣٪ في إنجلـترا بعد أن اتَّخَـذت عـدَّة إجـراءات ضـد تعاطـي الكحول.

وعـلى الخطـة أن تُواجِه الإصـلاح الزراعي من زاوية أخـرى، أو بالأصح من زاويتين:

أ) يجـب أن تخصـص الأراضي لمهمـة الإنتـاج وفقًـا لمعطيـات اقتصـاد القـوت مـن ناحيـة، واقتصـاد التنميـة مـن ناحيـة أخـرى.

ب) يجـب وضْـع جهـاز فعَّـال يحمـي المسـاحات المُنتِجـة مـن ظاهـرة التصحر.

ومـن المؤكـد أن كل مخالفـة إداريـة لا تلقَـى عقوبة الاسـتنكار الرسـمي، تصبـح جرحًـا متقيِّحًـا ينـزف في الجسـد الاجتماعي.

الرياضيات من أجل التغيير

لقـد أجـاد المفكـر الكبير فيـما عرض وقـدم، لكننـي هنا أحـب أن أعرض لأهميـة الرياضيـات في التفكير والتخطيـط ؛ لنطبق معًا مـا أراده مالك بن نبي.

إن الرياضيات هي وسيلة للتفكير، وعملية حل المشكلات وشرح الحجج، والأساس الذي يقوم عليه المجتمع الحديث، والبنية التي تتشكَّل عليها الطبيعة؛ حيث يقال إنه تطبيق مَنهجِي للمادة، ويرى بعض الناس أنها تجعل الرجل أكثر تنظيمًا. كما إنها تجعل حياتنا عملية وتمنع الفوضى.

ومع ذلك، فإن معظم الناس لديهم تاريخ من المعاناة في مهام الرياضيات مما يجعلهم يفكرون فيما إذا كانوا سيُطبِّقون المعرفة في الحياة الواقعية. بينما يجدها آخرون غير مثيرة للاهتمام ولا تستحق الجهد المبذول للاستثمار فيها؛ لأنها تتضمَّن فقط التعامل مع الأرقام والآلات الحاسبة. ويعتقد بعضٌ أن هذا موضوع مرهق ومعقد للغاية. إنهم يستسلمون فقط للخَوْف من افتقارهم إلى القدرة على فَهْم الرياضيات والمضي قدمًا.

على العكس من ذلك، هناك أشخاص يجدون حلَّ المسائل الرياضية أمرًا مسليًا ومثيرًا للاهتمام وجديرًا بالتقدير. وهم عمومًا يحبُّون التَّعامُل مع الأرقام والمنطق. كان عديد من العلماء المشهورين مثل السير إسحاق نيوتن وألبرت أينشتاين علماء رياضيات عظماء في عصرهم وقاموا باكتشافهم بدعم من الرياضيات. ابتكر السير إسحاق نيوتن حساب التفاضل والتكامل والميكانيكا وما إلى ذلك جنبًا إلى جنب مع نظريته في الجاذبية. مثال آخر هو صيغة أينشتاين الشهيرة، $E = mc^2$، التي تصف العلاقة بين الطاقة والكتلة، والتي تمثِّل جوهر نظريته النسبية. لذلك، فإن الرياضيات مُمتِعة ومحفِّزَة وجديرة بالاهتمام لأنها أنجبت أعظم عالمٍ لم يكُن من الممكن التعرف إليه إذا لم يجد الرياضيات مَعقُولة.

إن القدرة على الترشيد والإبداع والتفكير النقدي ومهارات حل المشكلات وحتى مهارات الاتصال الفعال هي العديد من الخصائص التي تطورها الرياضيات.

أحـد التطبيقـات الأكثـر شـيوعًا للرياضيـات في الحيـاة اليوميـة هـو الإدارة الماليـة مثـل الإنفـاق والاسـتثمار والادِّخـار. إن العالم الحديـث يعتَمِد عـلى المـال، وبالتـالي يتطلَّـب المعرِفَـة في الرياضيـات للمسـاعدة في العمليات الحسـابية المختلفـة. سـيؤدي عـدم القـدرة عـلى الجمـع أو الطـرح أو الضرب أو القسـمة إلى صعوبـات خطـيرة عنـد التعامـل مـع الأمـوال. عـلاوة عـلى ذلـك، ينبغـي للمـرء أن يكون عـلى دِرَايَـة بحسـابات النمـو الأسي للتخطيط للتوقعـات المسـتقبلية وخاصـة في إنفـاق المـال.

بالإضافـة إلى ذلـك، يتم تطبيـق الرياضيات يوميًّا في المتاجـر. يتطلَّب هذا القطـاع اسـتخدامًا دقيقًـا للمعرفـة الرياضية مثـل التقدير والضَّرب والنِّسَـب المئويـة. يطبِّـق البائعـون الرياضيـات في حسـاب سـعر الوَحْدة وتقدير نسـبة الخصومـات المُقدمـة وقيـاس وَزْن المنتجـات وتقديـر صـافي السـعر المطلوب لبيـع منتـج أو شرائه.

الرياضيـات جـزء أسـاسي مـن حياتنـا اليوميـة، وهـي لغـة العلـوم والتكنولوجيـا والهندسـة. مـن حسـاب إكراميـة فاتـورة المطعـم إلى تصميـم أحـدث هاتـف ذكـي، تُعَـد الرياضيـات جـزءًا لا يتجـزَّأ مـن العديـد مـن جوانـب المجتمـع الحديـث. ومـع ذلـك، فـإن تأثيرهـا يمتَـدُّ إلى مـا هـو أبعَدُ مـن مجـرَّد التطبيقـات العمليـة. يمكـن للرِّيَاضِيَّـات أيضًـا أن تسـاعدنا عـلى فَهْـم التعقيـدات الأعمـق للعـالم، مثـل الأنـماط في الطبيعـة، والديناميكيـات الاجتماعيـة، والأنظمـة الاقتصاديـة.

أحـد المجـالات التـي قَدَّمـت فيهـا الرياضيـات مسـاهمات كبـيرة هـو دراسـة تغـيُّر المنـاخ. ومـن خـلال النمذجـة الرياضيـة، يسـتطيع العلـماء فهم ديناميكيـات النظـام المناخي للأرض بشـكل أفضـل، والتنبؤ بالآثـار المُحتَمَلة للاحتبـاس الحـراري. وبالمثـل، تلعب الرياضيـات دورًا حيويًّا في فهم انتشـار

الأمـراض المُعْدِيَـة وتطويـر اسـتراتيجيات فعالـة لمكافحـة الأمراض.

وتُعَـد الرياضيـات أيضًـا أداةً قويـة لاستكشـاف القضايـا الاجتماعيـة المُعقَّـدة، مثـل عدم المسـاواة في الدخل والاسـتقطاب السـياسي. وباسـتخدام النـماذج الرياضيـة، يمكـن للباحثـين تحديـد الأنـماط والاتجاهـات الأساسـية في البيانـات وتطويـر تنبـؤات أكثـر دِقَّـة للنتائـج المسـتقبلية. وهـذا يمكن أن يـؤدي إلى اتِّخـاذ قـرارات سياسـية أكثر اسـتِنَارة وفهـم أفضـل للديناميكيات الاجتماعيـة.

وإننـي مـن هنا أتقـدَّم بالشـكر والتقديـر لـدار حـكاوي؛ لاهتمامها بنشر المـشروع الفكـري لمالـك بـن نبـي، ويُعَـد كتـاب «من أجـل التغيير» مـن أهم هـذه الكتب عـلى الإطلاق، فعَسَـى الشـباب أن يُقْبِلوا على هـذه الكتب قراءة وفَهْـمًا؛ لعـلَّ الله يغير مـن واقع أمتنـا الحبيبة.

الأستاذ الدكتور: عبد الشافي عبادة
أستاذ الرياضيات بجامعة الأزهر الشريف
عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة

المقدمة

هذا الكتاب

مقـالاتٌ كان مفكرنـا الكبير مالـك بن نبي قد أودعهـا مجريات الأحداث في السـتينات مـن هـذا القـرن، في زمـن كانـت فيـه الجزائـر تبنـي حضورهـا الـدولي، وتَلِـجُ عصرها الوطنـي بعـد زوال الاحتـلال الفرنسي.

وهـي مقـالات تـأتي تمامًا لمقالات أخـرى، أودعهـا (بن نبـي) كتابًا صدر منـذ سـنوات تحت عنـوان (بـين الرشـاد والتيـه)، حين ترجمهـا من الفرنسـية إلى اللغـة العربيـة، وقـد اختارهـا وبوَّبهـا، بعدمـا كانـت في متفرقـات أعـداد الصحيفـة التـي تصـدر باللغـة الفرنسـية باسـم (la Revolution Africa in).

لقـد صدر كتـاب (بين الرشـاد والتيـه) بعد وفـاة مفكرنا بثماني سـنوات، عـن دار الفكـر بدمشـق، بعدما أعـدتُ النظر في صياغتـه العربية.

واليـوم أُراني- وقـد أتممـت مـا في يـدي من تـراث مالك بن نبـي - مدعوًّا في ختـام مهمتـي إلى أن أسـتكمل حصاد مقالاته السـتينيَّة، بنشر مـا تفرَّق منها؛ لذلـك عَهِدْتُ إلى صديقنا الدكتور بسـام بركة، أسـتاذ الأدب الفرنسي والعلوم اللغويَّـة (اللسـانيَّات) في الجامعـة اللبنانيـة، بترجمتها إلى العربية سـوى مقالاتٍ ثلاثـة أُشِـيرَ إليهـا في هذا الكتـاب بإشـارة «ع . م»، كنت قد اعتنيْـتُ بترجمتها.

لم يبـَق لـديَّ مـن وصيـة مالـك بـن نبـي- رحمـه الله - سـوى أن أراقـب حقـوق النـشر والترجمـة، وإذْ وجـدْتُ في ابنته (رحمـة) اهتمامًا بـتراث والدها، رأيـت أن أرد الأمانـة إلى أهلهـا، فتنازلت لهـا عن الحقوق التي عهـد إليَّ مالك بـن نبي بهـا في وصيتـه، والتي أنـشر صورتها في نهاية هـذا الكتـاب بخط يده.

قـد تكون الأحـداث التي انعكسـت في المقالات كما في المقالات المنشـورة في كتابـه (بـين الرشـاد والتيه) قـد تجاوزها الزمـن، وقلب التاريـخ صفحتها؛ فالأنبـاء عن مسـيرة الجزائر دخلـت منعطفًا جديـدًا، لكن منهج (بـن نبي) في صياغتهـا لا يزال الأوفى بالرؤية المسـتقبلية.

لقـد جُمِعَـت سـائر المقـالات بالفرنسـية تحـت عنـوان (مـن أجـل تغيـير الجزائـر)، بعنايـة أديـب جزائـري، هـو الأسـتاذ نـور الديـن بو قـروح، الذي يترامـى إلينـا مـن نشـاطه السـياسي ما أحسـبه متلبِّسًـا بـروح فكر (بـن نبي)، وإذا كان أن أسـتخلص مـن هـذا العنـوان تقويـمًا لأهميـة مقـالات (بـن نبي) السـتينية يأتي في التسـعينات، فهو إدراك الجيل الجزائري الحـاضر، بل والعربي معًـا لمرامـي فكـرٍ جـارٍ سـابقٍ لمسـيرة الأفـكار الجاريـة في عالمنـا الإسـلامي، بنصـف قـرن مـن الزمـن أو يزيد.

وهـذا يعنـي أن مجتمعنا الإسـلامي أضاع مسـيرة قـرن بكاملـه، حائرًا في طوفـان العـصر الحديـث، دون أن يسـتخرج لمسـيرته طريقًا فاعـلًا ومثمرًا.

(بـن نبـي) ومنـذ الثلاثينـات - وقـد اسـتفاق وعيـه عـلى أزمـة العـالم الإسـلامي في قبضـة الاسـتعمار - اسـتطاع أن يَسـتخرِج القواعـد الأساسـية للنهضـة، وأن يصيـح في هَـدْأَة السـكون الفكـري وافتقـاد الرؤيـة، داعيًـا إلى منهـج، يطـوي الشـعارات التـي أرَّخَـت لضـلال العقـود العـشرة مـن القرن العشريـن، وعـلى سـائر المسـتويات.

فمـن كتابـه (شروط النهضـة) الذي صـدر بالفرنسـية في الأربعينات، إلى كتابـه (وجهـة العـالم الإسـلامي) في بدايـة الخمسـينات، وإلى كتابـه (الظاهرة القرآنيـة) ثـم (الفكـرة الإفريقية الآسـيوية) في الفترة نفسـها، ثـم الكتب التي تلـت، تُؤصِّـل المنهـج، وتُحـدِّد أصـول ميـلاد المجتمـع، وتُشـير إلى مشـكلة

الأفكار في العالم الإسلامي، وتَبنِي قواعَد البناء الثقافي في كتابه (مشكلة الثقافة)، وتُحدِّد موقع المسلم من عالم الاقتصاد الحديث.. نرى (بن نبي) الكلمة الهادية إلى المُرتقى الصعب في بناء الحضور الإسلامي، والذي أشاحت عنه مسيرة القرن، حينما استسهلت الحلول، وأفرغت مخزون عُنفُوان الجيل في صيغ، بادرت الحماس وتلقَّفتْه، ليضيع في فضاء العبث، وسراب الرؤية، وهدر الطاقات والثروات في مسارب الاقتصاد العالمي، يستهلك الرفاهية كالماشية حَتْفُها في سِمَنِها.

في مقالات هذا الكتاب والذي سبقه (بين الرشاد والتيه)، تقرأ عن (بن نبي) المُؤسِّس لمنهج يدعو الشباب إلى مزيد فيه، وتعديل في تفاصيله، وتصويب لما كان قد اتَّكأ عليه فكره من أمثالٍ طرحتها المرحلة التي كُتِبَتْ فيها تلك المقالات، ثم جاء الزمن يكشف زيفها.

فالذي يبقى من هذا الفكر الرائد هو (المنهج) الذي نقيس به الْخُطى، ونرسم علامات الطريق.

فنحن اليوم نرقب دراسات لـــ (بن نبي) وفكره في كل موطن وفي كل مكان من عالمنا الإسلامي، ونشهد تحليلًا يجهد له الشباب الناشئ، فيأوي إلى دفء روحه الإسلامي ونور إرشاده في سبل الفعالية وذلك حتى لا نتيه – ونحن على عتبة القرن الحادي والعشرين – في متاهات قرن مضى، أحاط بفكرنا ومقدراتنا، وجعلنا رهائن عالم صناعي، زجَّنا جميعًا في قفص اقتصاده الاستهلاكي؛ بَعْضُنا يستكين له، فيَنْضُو عن كاهله ثوب القضية ورسالتها، وبعضنا يعالج قضبان ذلك القفص بصراخ الاحتجاج وتَذَكُّر الماضي.

في هذا الكتاب، الذي هو خاتمة إشرافي على كتب مالك بن نبي، أستودع الجيل أمانة منهج (بن نبي)، ليضيف إليه عمقًا في الرؤية، وطريقًا

يستشرف المستقبل ويحزم الفكر بِحِزَم الأصالة؛ أصالةٍ تجلس على طاولة العصر، في حضور يمتلك ناصية المسيرة، وكلمةٍ تحاور الأمم وتجاور الثقافات.

بيروت في 1993/12/14 **م**

عمر مسقاوي

الفصل الأول
في البناء الاجتماعي

الأفكار والبناء الاجتماعي[1]

الندوة التي عُقِدَت في (نادي الصنوبر)، ستترُك بدون شك نتائج إيجابية، إنما ينبغي القول: إن بعض المناقشات تتطلب الإيضاح، وبالخصوص تلك الخطب التي أُطلِقَت عبر المناقشات من أجل الإثبات أو الإشارة إلى السمة العلمية للفكر الماركسي؛ فأفقدت القيمة الموضوعية لها بإطلاقها ذلك الادعاء.

فاشتراكيٌّ ذو تكوين علمي، لا يذهب إلى هذا الحد، ولا يدَّعي أبدًا أنه يمكن عرض الاشتراكية، كما يُعرَض العلم الموضوعي، كالكيمياء مثلًا[2].

فماركس نفسه أوضح من ناحية أخرى خصائص طريقته تقريبًا في هذه العبارات «الفلاسفة حتى الآن فسَّروا العالم، أما نحن فنريد تحويله».

فالاشتراكية لا يمكن النظر إليها كعالم إلَّا في هذا الإطار، أعني بقدر ما تقتضيه التقنية الاجتماعية لتحقيق فكرة جديدة.

فتفسيره للعالم عبر مسلَّمتَيْه: المادية الجدلية والمادية التاريخية، يتضمن منذ البداية منهجًا ميتافيزيقيًّا، أفضى في جوانب أخرى لعناء كبير، كذلك العناء الذي ألَمَّ بالعالم حينما أراد أن يُحدِّد ضمن التفسير الماركسي بعض ظواهر نظريته، في علم الفلك الفيزيائي، في كتابه (العالم – الحياة – العقل).

لكن الندوة احتفظت من ناحية أخرى باتصال ولود، وأخصُّ خطاب الرئيس بو مدين، الذي طرح للتأمل أكثر من مصطلح، وإذا كان هناك

(1) "les lolees et ledi ficotion sociale ,"Revolution africiane, no 225 ,semaime du 5 ay 11 juin 1967.

(2) هذا التعبير قيل فعلًا خلال المناقشات.

أسباب جعلتني في مقالي الأخير أتحدث عن المظاهر الاقتصادية للندوة، فإنني أرى من المفيد أن أتحدث في هذه المقالة عن مشكلة الأفكار، التي أثارتها هذه الندوة.

ولنقرأ أولًا هذا المقطع من الخطاب:

«إن مجتمعنا هو كبقية المجتمعات الاشتراكية الأخرى يشكو من الانفصال بين الفكر والسياسة، وهذا يمنع الحوار المثمر والإصلاح عبر المناقشات الحية.

من هنا جاء ذلك الخوف التقليدي المتبادل، بين المفكر ورجل السياسة».

عبر صراحة تُشرِّف قائلها، فمن الواضح أن الرئيس بو مدين قد أراد أن يبرز نقصًا باديًا، وبالخصوص في الجانب السياسي، ولكن ينبغي أن نعترف أن الدكتور خالدي في كلمته الموجزة، قد وضع في الكفة الأخرى من الميزان الوزن المناسب، حينما تحدث عن (حركي القلم).

هكذا تكون القضية، قد استقامت لنا في خطورة أبعادها، وينبغي أن نعطيها ما تستحق من أهمية من وجهة نظر اجتماعية.

إن الماركسية التي ادَّعت بأنها قد تبعت خُطَي المنهج الهيجلي، قد ورثت من هذا المنهج آلية الجدلية الرائعة، وبالخصوص ذلك المبدأ الذي من حقه أن يُفاخَر به؛ إذ يقول: هناك مستقبل فلسفي للعالم ومستقبلٌ لعالم الفلسفة.

فهذا المبدأ إذن، قد وضع بين الأفكار المنظمة منهجًا فلسفيًّا، وبين الأحداث الاجتماعية رابطًا محددًا ومتبادلًا.

وهذا يعني أن الترابط المستمر، والتلاحم المؤثر بين المعنيين الفلسفة (الأفكار)، والعالم (بقدر ما يمثل الواقع الاجتماعي) هو أمر ضروري في كل لحظة، وهذا التزاوج هو نفسه مقياس مستوى حضارة ما.

وينتج عن هذا أن كل ما يؤدِّي إلى الاختزال، أو المزيد من التعتيم بين الأفكار

والأحداث، لابد من مراقبته بكثير من اليقظة والحذر، وهذه الاعتبارات هي التي تُملَى علينا دائمًا، وتحدد موقفنا من مؤسسة «...» التي ليس من شأنها إلا أن تُلقي مزيدًا من التعتيم، على تلك الصلة التي نتحدث عنها هنا.

من ناحية أخرى، فإنه من غير المفيد أن نبني هنا مناقشة حول أولوية مستقبل فلسفة العالم، أو مستقبل عالم الفلسفة، والذي هو الخلاف الرئيسي بين ماركس وهيجل.

لِندعْ هذه المشكلة جانبًا، آخذين بعين الاعتبار الأمور من مجرد وجهة نظر اجتماعية، لنرى بأن كل اطِّراد تاريخي، إنما هو اختصار لذلك الخطر المزدوج المحدَّد بالمبدأ الذي نعمد إلى تحليله.

الماركسية مثلًا: إنما هي منهج أفكار رأى النور في الواقع الاجتماعي لأوربَّا في بداية القرن التاسع عشر، إنها ساعة مستقبل فلسفي لعالم ما.

لكننا إذا نظرنا إلى الحاضر، يبدو لنا الوجه الآخر: مستقبل عالم الفلسفة، الذي ظهر لأعيننا عبر القرن العشرين؛ وفي الواقع الاجتماعي لبعض البلاد الاشتراكية في مرحلة تطورها الحالي.

ليس هذا إلا مثلًا بينما الحدث عام، ونحن نراه بارزًا في تطور المجتمع الغربي انطلاقًا من أصوله المسيحية، وقد أوجزه لنا بالخصوص في اطِّراد الثورات حين قال «من الإنجيل إلى العقد الاجتماعي فالكتب (الأفكار) تصنع الثورات».

فهناك في الواقع علاقة جدلية بين الأفكار والأحداث الاجتماعية والسياسية في مراحل التاريخ كافة، وما يهمنا اعتباره هنا هو تأثير الانقطاع بين الأفكار والأحداث الاجتماعية على تطور مجتمع ما، وأسباب هذا الانقطاع.. هذه هي المشكلة التي طرحها الرئيس بو مدين.

ينبغي أن نركز اهتمامنا على انفصال كهذا في الجزائر، وأن نوظِّف في حسابه العمل السياسي، وقد أضحي حقلًا لبعض المسؤولين الذين يمارسون السياسة كمهنة، بدلًا من أن يعيشوها كنضال.

لكننا نبادر إلى القول بأن الخشية من الأفكار لم تنشأ في بلادنا؛ فسقراط قد لاحظها في المجتمع الأثيني عند أولئك الذين يُدْعَوْنَ (الفصحاء) في خطاب المائدة.

فقد وضع فرقًا بين (الجدليين) الذين يبحثون عن فكرة صحيحة (العصر لم يكن يتطلب البحث عن الفكرة الفعَّالة) وأولئك الذين يعمدون إلى المحسنات اللفظية، أو يحترفون النوادر التي لا يحتاج فيها الراوي إلى فكرة، أو إلى حقيقة تتضمنها، أو إلى وسيلة عمل.

لكن سقراط كان يجهل الاستعمار، بينما عصرنا الذي يعرفه قد وضع فرقا هو الآخر، بين الكاتب الذي يكتب فقط لإرضاء ذاته أو الآخرين، والكاتب الذي سماه الدكتور خالدي (الحركي بالقلم).

ينبغي أن تترك الأول لعدالة محكمة الأدب، ويبدو لنا أن كاتبًا مغربيًّا هو الأستاذ عبد الله العروي قد خصَّ الموضوع بدراسة هامة؛ حيث أعلنت عن قرب صدورها مجلة في منشورات ماسبيرو، (فحركي القلم) هو على العكس من ذلك، يهمنا لأن حالته تهم عالم الاجتماع.

في الواقع فإن أفكارنا لا يصنعها فقط (الفصحاء) الذين يتحدثون باحتقار (وأحيانًا بانفعال)، ولكن أيضًا يصنعها الحركيون.

الأولون يُدخلون إلى دورة الأفكار قاطعًا منهجيًّا، أمَّا الحركيون، فيدسون الأفكار الخاطئة، التي لا علاقة لها بالحياة، وبالمشاعر وبمتاعب الشعب الجزائري، والفرقتان تعملان معًا لاختزال كل تواصل ضروري بين (المستقبل الفلسفي لعالم ما)، و(مستقبل عالم الفلسفة).

إنهم ستائر تحول بين الأفكار والأحداث الاجتماعية، خصوصًا في الإطار السياسي، وأحيانًا دون أن يعلموا، يُشكِّلون فواصل، جهزت بأيدٍ خبيرة؛ لتقطع كل اتصال من شأنه أن يعزل الأفكار، ويجعل من غير الممكن الحوار بين رجل السياسة ورجل الفكر، وفق تعبير الرئيس بو مدين.

ولعله من غير الممكن أن نتحدث هنا عن سائر الإجراءات المستعملة، وعن سائر القواطع التي جُهِّزَت، لتجعل مثل هذا الحوار مستحيلًا.

يكفي أن نقول فقط: إننا إذا كنا نعرف شيئًا عن الصراع الفكري العنيد، الذي يجمع بيده القوى الكبرى والتي تَدَّعي السيطرة العالمية، فإننا لا نعرف شيئًا عن الخاصية القوية للصراع الفكري، الذي يطلقه الاستعمار في البلاد التي خرج منها، بعد أن استعمرها.

وشعوب العالم الثالث تدخل في هذا، سواء علِمَتْ به أم لم تَعْلَمْه؛ فنحن نعرف على سبيل المثال، بأية طريقة ينتقص الاستعمار من طاقتنا الاقتصادية، حين يُخضِعُ موادَّنا الأولية للكساد؛ إذ ينافسها بما يطرح في الأسواق بديلًا عنها مصنوعات (السانتاتيك)، ونعلم - أيضًا - أنه يفعل ذلك لهدف محدد، يُعرقِل بناءنا الاجتماعي.

لكن ينبغي أن نضيف بأن مناورات الاستعمار للانتقاص من أفكارنا، أعني افتقادها فعاليتها في البناء الاجتماعي هي الأكثر خداعًا، وأن نعترف في الوقت نفسه بأنه لا يوجد في بلادنا أية وقاية تمنع هذه المناورات من النجاح؛ بل العكس هو الصحيح.

ترجمة

ع.م

مالك بن نبي

المذهب الاقتصادي الاجتماعي المنتظر[1]

فلنركز على نقاط ضعفنا كي نُحَضِّر أسس ثورتنا بشكل أفضل، لقد كانت الصحف التي صدرت في الأول من نوفمبر الماضي مُحقَّة، حين أشارت إلى أن عيد الاستقلال هذا كان مختلفًا عن سائر الأعياد التي سبقته.

في الحقيقة، وقف شعبنا هذه المرة أيضًا خاشعًا لذكرى شهدائه، وشيَّع - في موكب مهيب - رُفات أبنائه الذين استشهدوا خارج أرض الوطن، إلى مثواهم الأخير.

لكن المناسبة ترتبط فوق ذلك بحدث دولي ووطني ذي طابع خاص جدًّا، ونحن إذ نترك لمحررينا في السياسة الخارجية الاهتمام بالتعليق على الأمر الدولي، فإننا - على الصعيد الوطني - نستطيع أن نقول دون مبالغة منا: إنَّ عيدنا الوطني الأخير هذا يتطابق مع انعطافه حاسمة في سياستنا الإنمائية، وربما سيأتي من يقول في المستقبل: إنَّ الأسبوع أو الأيام العشرة من خطوة (إلى الأمام) هي على وجه الدقة أسبوع أو أيام هذا العيد.

لقد دخلت البلاد في مرحلة جديدة مع الخطابات الأربعة الأخيرة التي ألقاها رئيس الدولة في نادي الصنوبر، كان الخطاب الأول، كما نتذكره، بمناسبة اجتماع قاداتنا الإدارية عشية الأعياد، وكان الثاني في الغداة مُوَجَّها لكادرات العمَّال. أما الثالث والرابع فقد توجه فيهما الرئيس غداة هذه الأعياد إلى كادرات القضاء والكادرات الاقتصادية - الاجتماعية.

بذلك أصبحت الخطب الأربع هذه بمجملها وبالإضافة إلى خطاب

(1) "Un Corps DE doctrine economico- sociale attende ."Revolutipn africaine.,

السيد شريف بلقاسم، وزير الدولة للشؤون المالية والتخطيط، تُشكِّل الهيكل الأساسي والضروري لصياغة وتدقيق وجمع الأفكار الرئيسة في قطاعات أساسية من سياستنا الداخلية.

وحتى لو كانت هذه الأفكار موجودة من قبل، فإنها لم تكن تستطيع في حال التشتت والضياع الذي توجد فيه، أن تُؤثِّر ديناميكيًّا وتصحيحيًّا على أسلوب الإنماء في بلدنا، إنها اليوم متحدة في قالب متكامل لابد وأن يعمل على تكوين نظام سياستنا الداخلية.

وإذا وضعنا جانبًا القيمة الخاصة لهذه الأفكار على الصعيد التقني، يتوجب علينا بادئ ذي بدء أن نشير إلى أنها تحمل على الصعيد الأخلاقي صدمة نفسية من شأنها أن تُزيد التزام الشعب الجزائري بثورته.

والواقع أن اللهجة المؤثِّرة التي عبَّر بها الرئيس بو مدين عن هذه الأفكار، منحتها قيمة ثورية أورثت اندفاعًا أيديولوجيًّا جديدًا يهُبُّ على البلاد.

فعلى المستوى العقائدي، هناك مفاهيم أساسية، لا يمكن لأي تقدم اقتصادي واجتماعي أن يتحقق بدونها، قد أُعِيد تقويمها أمام أبصارنا، بل أمام أبصار كلِّ مواطن جزائريٍّ.

فقد كان – ولا شك – من الضروري أن يُعاد تقويم مفاهيم المسؤولية، والعدالة، والاقتصاد، والنظام، في معانيها المألوفة والأخلاقية الأقرب للحسِّ الفطري عند الشعب، ذلك أن هذه المفاهيم – كما أشار الرئيس إلى ذلك – فعلًا قد قَلَّل من شأنها التضخمُ والمزايدات الفوضوية.

لقد كان هذا التوضيح ضروريًّا، على الأخص، فيما يتعلق بنظامنا القضائي؛ فالعدالة أصبحت – كما يقول بحق الرئيس – بضاعة يتعذر على الشعب الوصولُ إليها:

إنها بضاعة باهظة الثمن، وفي الوقت ذاته متقلِّبة في منحاها. فقد غدت قاعات المحاكم عندنا مسرحًا للمناظرات الخطابية بين المرافعين الذين باتوا يصدرون الأحكام، ويمنعون القضاة من إعطاء الحكم بأنفسهم.

كذلك، كان من الضروري توضيح ما يتعلَّق بالتنظيم النقابي، فالمسؤول عن الحزب قايد أحمد قد أدخل البهجة على صدورنا حين قدَّم توضيحاتٍ تضع هذا التنظيم في اتجاه وديناميكية جديديْن.

لقد تحقَّق بذلك عمل ضخم على الصعيدين الأخلاقي والعقائدي، فنحن الآن بتنا نملك العقيدة الكاملة لتطورنا.

وفي الواقع يجب علينا في الوقت الحاضر أن نُجسِّد هذا التوضيح العقائدي على المستوى التقني، ونتطرق هنا إلى المرحلة الأصعب من عملية إعادة تنظيم هذه القطاعات: جهازنا الإداري والقضائي، وبنياتنا الاقتصادية، والاجتماعية، والضريبية.

يجب وضع حدٍّ لبعض العادات السيئة، وعلى الأخص فيما يتعلق بالعادات البيروقراطية التي تضع أعباء إضافية لا فائدة منها في مناهج التفكير (التخطيط) والتنفيذ عندنا، أو في إدارتنا للقطاع العام.

وعلينا أن نفهم هنا أن كلَّ ثغرة من ثغراتنا تُحدِث في جهازنا وفي مجتمعنا فراغًا لا بدَّ أن يملأه شيء ما، والشعب يسد حتمًا هذا الفراغ، إما على حساب ضميره، أو على حساب ماله، ولكي نفهم ذلك، يجب اللجوء إلى الأمثلة التي استخدمها الرئيس نفسه.

علي صعيد الضرائب، تأتي صورة (المواطن الذي يلاحقه الشرطي) فتعطي مثالًا ليس على حدثٍ مادي فحسب، بل على حدثٍ أخلاقي كذلك. فالمواطن الملاحق ليس مصابًا في جيبه فقط، بل هو مصاب في

وعيه لمواطنيته كذلك.

وعلى صعيد آخر، سمعت البلاد أنها ورثت 20500.000 هكتار من الأراضي التي كانت تُكوِّن أملاك المستعمرين الأغنياء. ما الربح الذي يمكن أن تَجنِيَه منها؟

لقد أعطى الرئيس التقديرات الدنيا، لو كانت هذه المساحة التي تُكوِّن اليوم أملاكًا مسيَّرة ذاتيًّا قد أُجِّرت بقنطارين فقط للهكتار الواحد، لتدخل كل سنة إلى صندوق الدولة مبلغ 25 مليار فرنك قديم، ولكانت الأعباء الضريبية المخصصة لبرنامج التنمية قد خُفِّفت بما يعادل هذا المبلغ.

ولقد استخلص الرئيس النتيجة المعبرة التالية: «إذا لم تُعلِّل فكرةٌ ما وجودها على الصعيد الوطني بالربح الذي تجنيه، فإنها لا يمكن أن تكون معصومة وكأنها آية قرآنية مُنزَّلة». هذا الكلام يجب أن يُفهَم كإشارة إلى الإدارة الذاتية، وهنا ندرك مدى أهمية مثل هذا التوضيح في أفكارنا الرئيسة.

ولكن، إذا كان هناك من ميدان يجب أن تُطبَّق فيه هذه المتطلبات بحزم، فإنه – ولا شك – ميدان المؤسسة الوطنية ذات الطابع الصناعي، أو نوعًا ما التجاري.

لقد أشرنا في حينه إلى أن تزايد الرموز يعكس في الواقع تشتتًا في وسائلنا – على صعيد الفكرة (التخطيط) كما على صعيد التنفيذ، وقلنا كذلك إن تكاثر الخطط الصغيرة لا يكون إطلاقًا خطة وطنية، هذا على صعيد الفكرة (التخطيط).

أما على صعيد التنفيذ، فإن تكاثر الخطط يعني على الأقل التبذير والاستعمال المزدوج لعامِلِيَن تقنيين، هم بشكل عام أجانب، يقبضون رواتبهم بالعملة الصعبة.

والأمر أشد سوءًا على صعيد أوائلية العمل، في بادئ الأمر وعلى الصعيد الإداري، يفتح تكوين هذه الوحدات المتبعثرة الباب أمام احتكار مراكز الوظيفة والمراكز الاقتصادية، ويخلق هذا الاحتكار جوًّا يحصل فيه، كما يقول وزير المال، (صعود هائل وسقوط عنيف).

أخيرًا، وعلى الصعيد العام، معظم هذه المؤسسات الوطنية التي تغطيها هذه الرموز تنمو لذاتها، كأنها لا تُكوِّن جزءًا لا يتجزأ من الجزائر، ويوجد لبعضها حتى (مجسات) في الخارج. ونحن نود لو نعرف ماذا تكلف البلاد هذه السفاراتُ الفريدة من نوعها، فهي كلها تنمو مثل أقمار صناعية لا تَمُّت بصلة لأرض الوطن، إلا حين تهبط لتتزوَّد بالوقود.

إننا نعتقد أنه آن الأوان لاستعادة هذه الأقمار إلى الأرض الجزائرية ولاستردادها - إلى وزارة التخطيط ربما - كي تُصهَر في الخطة الوطنية، وسيكون النفع كبيرًا، معنويًّا وماديًّا، وبالنسبة للشعب الجزائري، إذا وُضع حد لهذا التبديد، وهذا التبذير.

وأعتقد أنه ليس من العسف أن نستخلص هذه النتيجة من الخطاب الأخير للرئيس ومن خطاب وزير المال. إن ما تقوله هنا ليس سوى ملاحظات بديهية.

وربما يُفكِّر بعضهم أن كل الأمور سيئة في بلد تُولِّد فيه التحولات والاضطرابات - حتمًا - نواقص ونقاط ضعف.

إننا نؤكد على نقاط الضعف عندنا؛ كي نُحضِّر أسس ثورتنا بوجه أفضل؛ لأن من طبيعة ثورتنا مشاركة الشعب كذلك، لا يريد الحكام أن يخفوا عنه الحقيقة، مهما كانت مزعجة، وبالنسبة للجميع، ربما كانوا يحتاجون إلى مزيد من التوضيح في التعريفات والتوجيه، وهذا الأمر قد قُضِيَ، يجب السير الآن بتناغم من الإرادة العامة ومع عزم وتصميم السلطة الثورية.

فلنتكلم عن العارضة[1]

يجب أن نغتبط للاهتمام الذي يوليه الرأي العام للمواضيع الي تُناقش منذ الاعتداء الإسرائيلي، والدليل على هذا الاهتمام يظهر خاصة في أن المقالات التي تصدر باللغة الفرنسية تُترجَم غالبًا، وتُنَشر في المجالات التي تصدر باللغة العربية.

هكذا نرى أن مقالي (لحظة التفكير) قد تُرجِم لأجل قراء العربية، أي لأجل السواد الأعظم من الرأي العام، لقد قرأت هذه الترجمة، وانتابني شعور حقيقي بالإعجاب للمترجم، ولكن خطًا واحدًا صدر عنه، وشوَّه تمامًا فكرتي حول نقطة أساسية، واستعجلني لأقول: إنني لا أمارس هنا حقًّا ما بالتدقيق؛ إنما هو واجب بسيط يكتسب أهميته من الظروف غير الاعتيادية التي نعيشها.

إن موضوع اليقظة الذي تذكرنا به في كل لحظة اليافطات المُعلَّقة فوق شوارعنا، موضوع ذو أهمية عظيمة في هذه الظروف.

وأي خطأ في هذا الميدان إنما هو خطأ فظيع؛ خاصة إذا كان يتعلق بقطاع مهم من رأينا، وخاصة إذا كان يضع أمام أعيننا نوعًا من التناقض مع مبدأ النقد الذاتي، وهو مبدأ لا ينفك يفرض نفسه في كل لحظة في البلد الثوري، ويتفوق في كل لحظة على كل المبادئ الأخرى.

وباختصار، أعيد وأترجم المقطع من جريدة الشعب: «ونحن إذ نحيِّي أصدقاءنا المتعاونين الذين يقدمون مساعدتهم القيمة، نقول (لهم)

(1) "parlons de la pouter "Revolution africaine, no 230 ,semaine du 10 au 16 jui llt 1967.

إن النظـام يجـب أن يسـتتب في البيـت بـادئ الأمـر».

كل شيء في هـذا المقطـع، اللهـم إلا كلمـة (لهـم) التـي بـين هلالـين، لقد أضافهـا المترجـم فغـيرت تمامًـا معنـى الجملـة، ونيـة الكاتـب الـذي جعلتـه الترجمـة في موقـف حـوارٍ مـع المتعاونـين، وكأنـه يعطي لهـم - في نهايـة الأمر - مسـؤولية النظـام في منزلنـا.

إلا أن التحيـة التـي أوجهها لهم هنا ليسـت سـوى حيطـة إضافية؛ أردت بهـا أن أُعلِـم القـارئ أنني لا أفكر بهـم؛ وأن الأمر لا يتعلـق بالضيوف المارِّين بالمنـزل، بل بأولئـك الذين يوجدون فيـه للحياة وللمـوت، أي نحن بالذات.

ولابـد هنـا مـن ملاحظـة، إن مجرد كلمـة صغير تحمـل أهمية كبـيرة؛ فهي تسـتطيع أن تحـوِّر الفكـرة، كما يسـتطيع القضيـب الموضوع على سـكة الحديد أن يحـوِّر القطار عن سـكَّته.

والنتيجـة أن هـذا الخطـأ في الترجمـة ذو نفـع من منظـور آخر؛ لأنـه يجبرنا عـلى العـودة إلى موضوع شـائك وخطير، ويكفيـه أنه ذكرنا بأننـا لا نزال نميل أحيانًـا إلى الاهتـمام بالقشـة في عين جارنا، وننسـى العارضة التـي في أعيننا.

إن نقدنـا لذاتنـا لا يبـدأ بوعـي الآخـر، بـل بوعـي الـذات، وليـس علينا أن نطلـب تحمـل مسـؤولية بيتنا مـن الآخرين، بل مـن أنفسـنا، إن الأجنبي - ولـو كان مشـبوهًا - لا يسـتطيع أن يفعـل الـضرر في بيتنا إلا إذا وجـد فيه من يحابيـه ويتآمـر معه، كما جرى مـع هذه الأدمغة (الجواسـيس) الذيـن بفضلهم اسـتطاع الطـيران الإسرائيـلي في الخامـس من حزيـران أن يصـل إلى المطارات العربيـة خفية عـن راداراتها.

تلك هي المشـكلة! إنها مشـكلة سياسـية في بادئ الأمر، فعندمـا ألقى قادة هـذا البلد شـعار اليقظة، لم يسـتجيبوا لأسـطورة مـا، بل لـضرورة لم تفقد يومًا

أهميتها، ولكنها باتت في هذه اللحظة الاستثنائية (الحرجة) أشد إلحاحًا، ليس لي الأمر في أن أقول ما يتضمن هذا الشعار من المنظور العسكري.

ملف الإمبريالية

لكن الحرب لا يُنتَصر فيها بالأسلحة المادية فقط، كالبندقية والمدفع أو حتى الطائرة، وأحيانًا حتى يسيء للانتصار العسكري الكبير تقصيرٌ (نقص) على الصعيدين الأخلاقي والسياسي، هذا أمر يشهد عليه التاريخ منذ القدم.

بعد أن انتصر هنيبعل في (كان) وصل إلى أبواب روما، فصاح مجلس الشيوخ – وقد اعتراه الهلع – صيحة الخوف التي لا تزال مدونة في كتب التاريخ: «هنيبعل على أبواب روما!». ولكن ملذات (كابوا) (كامبانيا) التي تراخى فيها ضباط هذا الإستراتيجي العظيم، وتقصيرات مجلس الشيوخ القرطاجي، أنقذت روما التي انتهت، بأن محت قرطاجة من خريطة (الوجود)، كما هو معروف، ولكن هذه العوامل النفسية والاجتماعية والسياسية، تقوم بدور أكبر بكثير، في عصرنا الذي لا يتعلق فيه مصير الحرب بالجبهة فحسب، بل بالخطوط الوراثية أيضًا.

إن مصير روسيا القيصرية ومصير ألمانيا الإمبراطورية لم يُحسما في نهاية الأمر على المستوى العسكري، بل على الصعيد النفسي والسياسي، وهذه الحقيقة تصبح حقيقة وواقعًا، على الأخص بالنسبة لبلد يجابه الإمبريالية التي آخر ما تستعين به السلاح العسكري؛ فسلاحها الأساسي في بلدان الشرق الأوسط هو ملفها، الذي تسحب منه في اللحظة المناسبة (حين يحين الزمن) اسمًا؛ مثل (تشومبي) أو آخر مثل (أودال).

بملفها تحكم الإمبريالية العالم منذُ بضع سنوات، عندما أممت إحدى

الـدول العربيـة شركة مـن شركات البـترول في أراضيها، أثار الدهشـة وجود ملف في وثائق الشركة، يضمُّ كلَّ أسـماء الأشـخاص، الذيـن يمكن أن يخدموا أو يُؤمِّنـوا مصالحهـا في البلـد، لا شـك أن ملـف الإمبرياليـة يجـب أن يكـون أكـبر أهميـة؛ لكـي يسـتطيع أن يسـاعدها في كل العمليـات، في زمـن الحرب، كـما في زمـن السـلم، على الجبهـة، كـما في الداخل.

فلـو عدنـا إلى تاريـخ ثورتنـا، لرأينـا أنهـا في الأول مـن نوفمـبر - تشرين الثـاني- باغتت لأول وهلة الاسـتعمار؛ لأن قادتها بالضبـط لم يكونوا معروفين بعـد لديهـا، ولم يكـن الاسـتعمار يعـرف - بَعْـدُ - إن كانـوا يحبـون القهـوة أو شراب اليانسـون، عـلى سـبيل المثـال، بالطبـع، إذا طلبنـا منـه أن يسـمح لنـا بإلقـاء نظـرة على صناديقه، فـإن جوابه سـيكون على الأرجح الرفـض لطلبنا، هذا أمـر مفـروغ منه.

مـاذا أقـول؟ الإمبرياليـة لا تحـب حتـى أن نتكلـم عنهـا، وإذا لم تَخُنِّـي الذاكـرة، شـخص تكلـم عنهـا منـذ قرابـة ثـلاث سـنوات في صحـف هـذا البلـد، وعلى الفـور انتصب قلم مُحـرَّك من الخـارج ليتهكم بقولـه:» الملف؟.. هـا! ها! هـا..».

لكـن ضحكـة الإمبرياليـة كانـت ضحكـة صفـراء؛ ونحـن نعـرف لماذا؛ لأنهـا لا تحـب أن يتكلـم أحـُد في العـالم الثالـث عـن ملفها.

إنـه مـن واجبنـا نحن أن نحمي أنفسـنا من تأثـير هذا السـلاح؛ هذا يعني أنـه لو سُـمح لنـا - وإن كان ذلك أمرًا غير معقول - أن نلقـي نظرة على الملف الذي يسـمح للإمبريالية أن تقـوم بعملياتها الضروريـة، في زمن الحرب، أو في زمن السـلم، فإن ما سـيهمني بادئ الأمر ليس أسـماء (السـياح) الزائرين.

من التقصير، إلى التآمر

وليس اسم تشومبي حتى هو الذي سيسترعي انتباهي في بادئ الأمر، وإنني أتساءل حتى إذا ما كانوا أرسلوه إلينا كهدية في هذه اللحظة بالذات؛ للفت انتباهنا عن مسائل كبيرة تهمهم، إن ما يهمنا هو ما يبقى على احتكاك مستمر معنا، وهذا ما هو حريٌّ أن يُستعمَل ضد البلد، بواسطة التقصيرات، والإهمالات الفردية وحتى التآمرات.

انطلاقًا من هنا يكتسب موضوع اليقظة كامل مغزاه، لأن كلَّ سلبياتنا في الإطار الأخلاقي والاجتماعي، وفي الإطار الاقتصادي والفكري، تصب بفعل آلية المواقف التي يسيطر عليها مبدأ توازن القوى في مصلحة الإمبريالية.

وإذا كان من الصعب أن نتنبأ باحتمال صعب علي الجبهة، أو أن نتوقع نتيجة الحرب، فإننا نستطيع مع ذلك أن نُؤَكِّد مسبَّقًا تمام التأكيد، أن كل سلبيات البلد ستقوم بدور حاسم فيها، وهكذا، فإن ما يهمنا أولًا بأول هو الأسباب التي تخلق تلك السلبيات؛ والعوامل التي تزيدها؛ والعوامل التي تضعها في حساب الإمبريالية.

إذا كان لكلمة اليقظة معنى، فإن معناها في بادئ الأمر إدراكنا لهذه السلبيات؛ فإذا كانت قطاراتنا لا تصل في أوقاتها المُحدَّدة، وإذا كانت مركباتها لا تخضع لصيانة جيدة، فهذا أمر سلبي، وإذا لم تُسلَّم حتى الآن قطعةٌ منذ سنة، فهذا أمر سلبي آخر، وإذا لم تُحَلَّ مشكلةٌ كان يجب أن تُحَلَّ منذ شهرين مضيَا - ربما بحجة أننا في حالة حرب - فإن هذا أمر سلبي يدخل في حساب العدو، ونزف الكادرات الذي تكلم عنه الرئيس بو مدين في (نادي الصنوبر) هو أيضًا أمر سلبي.

وبشكل عام، إذا أدركنا الانحطاط في عاداتنا، إذا تحدينا قوانيننا، إذا أفسدنا إطارنا الثقافي، وعلى الأخص بالتضحية بجمال مدننا وهدوئها، إذا لم نعرف كيف نحتفظ بالمحصول الممتاز للزمن الصعب، كما كان محصول سنة 1963م ومحاصيل غيرها من السنوات أيضًا، كل هذا يدخل مسبَّقًا في حساب وضع صعب محتمل تستفيد منه الإمبريالية.

بناءً عليه، فإن ما يهمنا هو معرفة أسباب كلٍّ هذه السلبيات من جهة، ومن جهة أخرى: الوسيلة التي تسمح بالتغلب عليها، وهذه الأسباب تكمن بادئ الأمر فينا نحن، في وعينا أو من حولنا من الجهة هذه من المتراس.

وليس هذا بالتفتيش في وعي الأجنبي الذي يأتي إلى بلادنا لنعرف تلك الأسباب، بل بالتفتيش في وعينا نحن؛ إذ لا يتعلق الأمر بالقشة التي في عين جارنا، بل بالعارضة التي في عيننا، من المشجِّع أن نلاحظ أن موقفًا جديدًا في هذا الصدد قد بدأ يظهر.

الفاعلية والعمل

لقد تناول حسنين هيكل هذه المسألة بشجاعة في افتتاحيته الأخيرة؛ فهو يُعطي في عدة أسطر غاية في الصراحة مثال الاعتراف بالذنب الذي – وإن كان لا يُصرِّح بكل شيء – فإنه يعطي النقاط الرئيسة، فهو يقول: «يجب على كل منا أن يقدِّم حساباته، يجب علينا أيضًا أن نفهم بعض الدروس».

من جهة أخرى، يُندِّد رئيس تحرير الأهرام باستعمالنا المُفرِط للكلمات، وهذا لا يمثِّل في الواقع خطأنا الوحيد، ولا – وللأسف – سلبيتنا الوحيدة، ولكن مع ذلك هذا دليل وعي جدي سيقلق الإمبريالية بالتأكيد، وهي

ستكون خاسرة بالتأكيد على المدى الطويل، وإن كانت تبدو على المدى القصير منتصرة في سيناء.

منذ الآن، يجب على الإمبريالية أن تأخذ بالاعتبار أن العالم العربي بدأ ثورته الثقافية كما يدل على ذلك» الاعتراف بالذنب» الذي أشرنا إليه والذي يستحق أن يتكرر كثيرًا في أبعد أعماق وعينا، ولكن يوجد على ما يبدو - وكما يفترضه النموشي في آخر مقالاته - أناسٌ يخافون الاعتراف بالحقائق المكبوتة في أعماق كيانهم، الزمن وحده سيتكفل بحملهم على الاعتراف.

وأخيرًا، لكي تعرف الإمبريالية سلبياتنا وأحيانًا لكي تزيد في عددها، تملك بالتأكيد في كل بلد من بلاد العالم الثالث جهازًا يتألف من مخبرين يستطيعون - إذا اقتضت الحاجة - أن يتحولوا إلى عملاء منفذين، وإلَّا فإن الإمبريالية ليست سوى طفل بريءٍ نحمل عليه بخبث.

عندما لا نملك تجربة عملية في هذا الميدان، يجب علينا على الأقل أن نتحلَّى بالفطرة السليمة، إن مجرمي طهران الذين عزلوا مُصدَّق عن الحكم في سنة 1953م، لم يخرجوا من العدم في خلال ثلاثة أيام، وإنما جاؤوا من جهاز كُوِّن في البلد تحسبًا للأحداث.

انطلاقًا من هنا، تصبح المسألة مسألة عملية [عملاتية]، لن تكون اليقظة بذات نفع إذا كانت تُؤدِّي إلى العدم، إذا وُجِدَ الإهمال والمحاباة في هذه الجهة من السواتر، فإنها ستكون غير مُجدِيَة.

وإذا كنا نريد أن نترجم تجربتنا في الأفكار بالعمل، فإنه من الواجب أن نحترم أصول الفعالية في هذا العمل.

التخطيط والتخطيط الدقيق[1]

كان من الأسهل أن ننعت القرن التاسع عشر بعصر البخار؛ فبالنسبة للمؤرِّخ أو عالم الاقتصاد أو عالم الاجتماع، كان البخار - فعلًا - سمة هذا العصر الأساسية؛ فالكهرباء نفسها لم تكن قد وصلت بعد إلى كامل التطورات التي توصلت إليها مؤخرًا، وكان الناس لا يزالون في مرحلة التيار المتواصل، مع حلقة (غرام) البلجيكي، وكانت الإضاءة بالكهرباء قد ظهرت - بتواضع شديد في العواصم فقط - مع مصباح (أديسون).

وكان عمال الإنارة لا يزالون يقومون بجولتهم اليومية، عند هبوط الظلام؛ ليشعلوا من جديد المصابيح في شوارع لندن وباريس، وكانت أولى شركات تكساس البترولية مضطرة - لعدم توافر الأفضل - أن توزِّع المصابيح البترولية على الصينيين مجانًا بواسطة عملائها في الصين، كي يستهلك هؤلاء إنتاجها الذي لم يكن قد عرف بعد سوق المحركات الانفجارية.

لكن عصرنا - على ما يبدو - سيجعل المهمة أصعب على المؤرخين؛ فالقرن العشرون هو - في الواقع - عصر الكهرباء، والطاقة الذرية، والفضاء، وأشياء أخرى كثيرة مثل (علم التوجيه) (Cybernetique).

لنَدَع المؤرخين في حيرتهم هنا، ولنختر بأنفسنا واحدة من خصائص عصرنا الأَساسية التي تهمنا بصورة خاصة.

فالقرن العشرون هو - فعلًا - عصر المساحات الكبرى المخططة أيضًا،

(1) "PLANIFICATION ET MICRO- PLANIFICATION "REVOLUTION AFRLICAINE, NO 265, DU 20 MARS 1968.

ولْنقُلْ بطريقة مباشرة: إن البشرية قد دخلت في عصر التخطيط ببعض الأمثلة المدهشة، وهذه إحدى نتائج تسارع خطى التاريخ، وليست هناك أي حاجة إلى مدى أو أيديولوجية الاتحاد السوفييتي أو الصين (اللذيْن يقدمان أمثلة تزيدنا دهشة بأبعادها ونجاحها)؛ لكي تقوم بعمل ما حتى في بلد ذي أبعاد متواضعة.

فالظاهرة عامة، والاستثناءات حالاتٌ مَرَضيَّةٌ ترتبط بالمعالجة الاجتماعية.

حتى السويد، فقد حققت منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية تحوُّلًا جذريًّا في بنيتها الزراعية بالتخطيط المناسب؛ إذ حلت منتجات الأشجار مكان سائر الزراعات الغذائية، وتحوَّلت كلُّ أراضيها الصالحة للزراعة إلى غابات، جعلت من هذا البلد واحدًا من أوائل المنتجين لمادة (السليلوز) في السوق العالمية، ومن الطبيعي أن أيَّ امرئ يفكر أن المزارعين السويديين ما كانوا يقومون بمثل هذا العمل؛ لو لم يروه أوفر ربحًا.

هنا، نقع بطريق المصادفة على واحدٍ من جوانب التخطيط غير المتوقعة، وليس الأشد إهمالًا: إنه الجانب النفسي.

ذلك أنه ينبغي على الخطة، أن تتوقع في إطارها المفاهيمي - كما في إطارها التنفيذي - كل الشروط المعنوية والمادية لنجاحها؛ وهي مجموعة شروط، تحدد تمامًا التقنية المعقدة للخطة، ولكن واحدًا من هذه الشروط التي تَمَسُّ مباشرة الجانب التقني للخطة هو وحدة المفهوم؛ ففي بلد يسير في طور النمو - مثلما كان الاتحاد السوفييتي في سنة 1918 والصين في سنة 1948 - يجب على الخطة أن تكون على الأخصِّ (موحَّدة) وليست فسيفساء تجمع مشاريع صُمِّم كلٌّ منها تصميمًا منفصلًا عن المشاريع الأخرى، وهي قد تتلاءم فيما بينها أو لا تتلاءم.

وإذا اتَّبعنا سبيل الاستنتاج المنطقي، رأينا أن التطور لا يمكن أن يُعدَّ جمعًا من العناصر المنفصلة، تم ربطها فيما بينها بعد فوات الأوان، ويُمكِن في هذه الحالة أن نقع على مفاجآت غير سارة، كأن نلاحظ أن بعض العناصر تزيد عن الحد، وأن أخرى تنقص عنه، أو أن بعضها - أيضًا - لا يتلاءم مع المقياس المشترك للمجموعة، لكونها أصغر أو أكبر ممَّا يجب، ويقدِّم لنا علم الميكانيكا مثلًا بيِّنًا؛ فالتوازن الديناميكي للآلة يضطرب - إذا لم يُدمَّر - ما إن نُضِفْ إليها قطعة أو نُنقِصْها منها.

نفهم من ذلك، أن الاهتمام بهذا التوازن هو الذي يحكُم تصوُّرَ أدنى جزءٍ من الآلة، في سبيل الوصول في نهاية الأمر إلى تأمين وحدة الآلة، هذه الوحدة التي هي الشرط الأساسي لأداء عملها بنجاح.

إذن فالتخطيط في بلد في طور النمو، يهدف أساسًا إلى تحريك كامل طاقاته وموارده البشرية والمادية تحريكًا يؤدِّي إلى خلق ديناميكية اجتماعية، وبابتعاد أحد عناصر هذا التخطيط، مهما كان ضئيلًا عن المقياس العام للمجموع، أو عن القواعد الأخلاقية الملازمة للعمل الجماعي لا يمكن بالنتيجة، إلا أن يؤثِّر تأثيرًا سلبيًّا على توازن الديناميكية التي يُراد خلقها.

فبرنامج التنمية لبلدٍ ما، كالجزائر مثلًا، تكون سائر فرص النجاح لديه مسجَّلة مسبقًا في منهجيته التخطيطية، وفي نوعية خطته التقنية والأخلاقية.

ولكن أولًا، هل توجد في الجزائر خطة؟

نظريًّا، الجواب نعم، هذا الجهاز موجود على ما يبدو في وزارة المال، وإن كان هنا أو هناك، فليس لمكان وجوده أثر كبير، ولكننا اليوم - ولبعض الوقت أيضًا - بلد ذو مقدرات زراعية على الأخص، أكثر من السويد الذي يمر حاليًا بمرحلة ما بعد الصناعة، والذي قام منذ فترة - ورغم ذلك - بإصلاحٍ زراعي له تأثير هائل على كامل الحياة الاقتصادية، كما قلنا.

هكـذا – إذن – يجـب أن يكـون المنظـور الزراعـي المعيـار الـذي نقيس به فـرص (خطتنـا) بالنجـاح، ودون أن ننسـى أن الانطلاقـة الاقتصاديـة لبلـد كبلدنـا يجـب أن تعمـل على إطعـام كلِّ الأفـواه وتشـغيل كلِّ السـواعد.

فللسـويد حـق إنتـاج السـليلوز بإفـراط، وعـلى الجزائـر أن تنتـج الخبـز؛ لتُؤَمِّـن الظـرف الرئيـس للإنتاجـات الأخـرى، ولابـد هنـا من الاعـتراف – حقًّـا – بالجهـود التشـجيعية، وبالمسـاعدات التـي بذلتهـا الحكومـة الجزائرية تجـاه الفـلاح هذه السـنة.

ولكننـا هنـا لسـنا مـن يحكم عـلى هـذه السياسـة، التي اسـتوحت قـرارًا جيـدًا بالعمل في سـبيل العدالـة الاجتماعية، مـن اهتمامها بتحقيـق الوفاق بين أعمالهـا وأيديولوجيتهـا المعلنة.

إن مـا نهـدف إليـه هنـا هـو التقنيـة، وخلـق جهـاز التخطيـط وسـيرورة عملـه، وفعاليـة (خطتـه).

إننـا مُجـبَرون عـلى إعـادة طرح السـؤال: هـل توجـد (خطـة) في الجزائر؟ فالأمـر يتعلـق بمعرفـة مـا إذا كان كل عمـل مـن أعـمال الدولـة، ويـأتي بالـضرورة كنتيجـة لتوقعاتهـا، ومـا إذا كان كل نشـاط في البلـد ينمـو بانتظام وفي اتجـاه محدَّيْـن مسـبقًا؛ بحيـث يـزول كل ما يخرج عـلى تطـور المجموعة، وبحيـث تختفـي كل (النقـاط الميتـة) في ديناميكيـة البلـد الاجتماعيـة.

وعلينـا – بالأخـص – معرفـة المكانـة التـي أُعطِيَت إلى أولويـات الإنتاج الغذائـي في المرحلـة الحاليـة مـن انطلاقـة البلـد، والواقـع أنـه يجب اسـتقبال مـشروع اسـتصلاح 200000 هكتـار مـن أراضي الكرمـة اسـتقبالًا مِلْـؤُهُ الـرضى، إنـه قـرار غايـة في الحكمـة، وإن الخمـر الـذي لم يجـد من يشـتريه في الخـارج يرتـد ليسـيل بغـزارة في حلقـوم الجزائريـين، عـلى مـا يبدو.

ونترك إلى الذين يهتمون بالإحصائيات أمر الاعتناء - مثلًا - بوضع النسبة الحسابية بين عدد البارات الجديدة التي فتحت أبوابها في الجزائر، ومعدل حوادث السيارات، وحالات الطلاق.

ونذكر فقط أن عدد الحوادث هبط في سنة 1967م بنسبة 33٪ في إنجلترا، بعد أن اتخذت عدة إجراءات ضد تعاطي الكحول.

فالقرار بتقليص مساحة الأراضي المزروعة بالكرمة قرارٌ حكيم جدًّا إذن، ولكنه لا يمكن أن يكون معيارًا نقيس به جهازنا التخطيطي؛ لأنه جاء نوعًا ما تحت ضغط ظروف خارجية هي تقلبات الأسعار.

إلا أن التخطيط يفقد كل معناه التقني ابتداءً من اللحظة التي تكون فيها فكرته الرائدة مستوحاة من الخارج، فهذا لا يكون تخطيطًا، وإنما مجرد مهارة، كمهارة البقال الذي يملأ رفوفه بما تمليه متطلبات زبنائه وأهواؤهم، وجليٌّ أننا نريد بادئ ذي بدء أن نمنع بلدنا من أن يكون خمارة معطلة، تحوَّلت إلى حانوت لبيع أشياء أخرى؛ لأنها فقدت زبناءَها العاديين، وعلى الخطة أن تواجه الإصلاح الزراعي من زاوية أخرى، أو بالأصح من زاويتين:

أ) يجب أن تُخصَّص الأراضي لمهمة الإنتاج وفقًا لمعطيات اقتصاد القوت من ناحية، واقتصاد التنمية من ناحية أخرى، كما حاولنا أن نحدِّدها في مقال سابق.

ب) يجب وضع جهاز فعَّال يحمي المساحات المنتجة من ظاهرة التصحر التي تهدد جنوب البلاد بأكمله، ولا يسعنا في هذا المجال إلا أن نقول: إن الصحراء تتوسع كل عام على حساب الأراضي (المفيدة للتغذية)، والواقع أن هذه الظاهرة الأخيرة مشكلة مغاربية تتطلب التعاون الأخوي

بين حكومات إفريقيا الشمالية الثلاثة؛ لكي تَصُدَّ تقدم الصحراء باتجاه الشمال في الدول الشقيقة الثلاثة، ولا يمكننا في هذا المجال، إلا أن ننوه بأهمية المعالم التي بدأ المغرب والجزائر بوضعها في هذا السبيل، من خلال الاتفاقية التي عقداها مؤخرًا حول المناجم، إنه مَعْلَمٌ هامٌّ في اقتصادهما التنموي، ولا بُدَّ من معالم مماثلة أخرى في اقتصاد القوت عندهما، وذلك بالاتفاق مع تونس.

من قابس، إلى أغادير، يجب أن يسد التحريج الطريق أمام الرمل الذي يرتفع.

نحن نعلم أن هذه المهمة ليست سهلة، وأنها قد تستدعي وصل بعض المنخفضات في الجنوب الجزائري بالبحر المتوسط من خلل غوطات الجريد.

ولكن عهد التخطيط الذي رأى صحراء (كارا كوروم) في جنوب الاتحاد السوفييتي تتحول إلى حديقة غناء؛ لا يستطيع أن يرى هذه المهمة أمرًا مستحيلًا.

ولا بد -رغم ذلك- من أن نضيف، لكي نبقى في موضوعنا، أن مشروع (كارا كوروم) لم يرَ النور مصادفة، فحتى قبل أن تُوضَع خطوطُه الأولى على الورق، كانت فكرته موجودة في العقيدة العامة التي أنجبت الـ (NEP) ووُسِّعَت فيما بعد تحت إدارة (الخطة العامة) التي استُحدثَت لتنفيذها وزارةٌ في موسكو، وكان لينين نفسه لا يزال حيًّا.

إن فكرة الخطة العامة تلك، هي التي تكون - في نهاية الأمر - الاختيار التقني للتخطيط، وهي التي تحافظ على فعاليته في السنوات اللاحقة، وذلك بتجنب التردد أقصى ما يمكن، أي بتوفير الوقت والطاقة اللذيْن يجب عدم إهدارهما.

هـذا هـو – حقًّـا – الاختبـار الـذي يجيـب عـلى سـؤالنا المطـروح: هـل توجـد خطـة في الجزائـر؟

هنـا يصبـح مـن الصعـب الإجابـة بوضـوح؛ لأن هنـاك مخططـيْن في كل مـكان تقريبًـا، وهـم يعملون غالبًـا مع أدمغـة المستشـارين الأجانـب، الذين يميلـون – أحيانًا – إلى الإعجاب ببلدنا، بسـمائه الزرقاء، أو كثبانه، أو سـهوله العاليـة، أكثـر مما يميلون إلى اكتشـاف، بل وتحسـس وزن واقعـه الاقتصادي.

وتمـر بذاكـرتي بعـض الأسـماء التـي تـدلُّ عـلى أننـا نملـك مجموعـة مـن المؤسسـات المخطَّطـة، وهـي أحيانًـا تتقـارب في الأسـماء مثـل (BERL، BERIM، SONAREM)؛ لأنهـا تملـك أهدافًـا متقاربـة أيضًـا.

ولكـن هـذه الفسيفسـاء التـي يكـون فيهـا لـكلٍّ مـن (سـيدي الرئيـس والمديـر العـام) ميدانه الخاص به، وموظفـوه، وحتى طلابـه الممنوحون للقيام بدراسـات غـير دقيقـة، ومـن أجل أهـداف غـير أكيـدة، وأخيرًا مستشـاروه، هـل تملـك القيمـة التقنيـة للمؤسسـة التـي تتـلاءم مـع متطلبات الخطـة؟ هنا يكمن السـؤال.

ولنقـل كلَّ فكرتنـا بوضـوح: لا يحِقُّ لكائـن حيٍّ يمشي ويعمـل، بتجميع أربعـة أطـراف وجـذع ورأس، جُلبـت مـن المشرحـة، كذلـك لا تسـتطيع مجموعـة متباينـة مـن المخططـات الصغـيرة أن تكـون مخططًـا عامًّا.

والواقـع أن القضيـة تتعلق بـألَّا تصبـح الجزائـر ميدانًـا للبيروقراطية، في اللحظـة التـي تدخـل فيهـا البشريـة عـصر التخطيـط، وعـلى كلٍّ حتـى كلمة (بيروقراطيـة) غـير كافية.

فالأمـر يتعلـق فقـط بواجهـة محليـة يفكِّر مـن ورائهـا بعض المستشـارين (السـائحين) الذيـن يُعلِّلـون قبـض رواتبهـم بقولهم لنـا من وقـت لآخر: إن سـماء الجزائـر خلابة.

دفاعًا عن رأسمال الأفكار[1]

لقد أشرت في مقالي ما قبل الأخير إلى الدخداخيات (كثيرة الأرجل)، وقد تساءل صديقي (النموشي) في العدد الأخير من مجلة (الثورة الإفريقية) عما إذا كانت خرافة أم حقيقة؟ فبتَّ الأمر في النهاية قائلًا قول من يرجم بالغيب: إنها حقيقة؛ فما كان منه إلا أن حلَّل التأثيرات المحتملة لهذه (الحقيقة) على صعيد الوقائع، وعلى صعيد الأفكار.

ولكن يجب أن نوضِّح هذه الأشياء توضيحًا أكبر، وللأسف، الدخداخيات واقع حزين في دول العالم الثالث، لقد قدَّمْتُ الاعتبارات العامة التي تقع في أساس تأكيدي هذا؛ ولقد كنت فعلت ذلك في كلمات متنوعة، على الأخص في مقالي ما قبل الأخير، وفي غيره من المقالات التي سبقت.

إن الاستعمار لا يستطيع فعلًا أن يترك - بلا قيد أو شرط - بلدًا كان يستعمره، ولا أن يغادره هكذا وبكل بساطة، مُخليًا وراءه المكان للاستقلال الجديد، هذا يعني أننا نعُدُّه ولدًا ساذجًا، فنرتكب بذلك خطًا فريدًا من نوعه، يكون في صالحه، ومضرًّا لنا، تلك هي - إذن - الاعتبارات العامة، التي بنيت تأكيداتي عليها بادئ الأمر.

كان يبدو أن هذا كاف، ولكنني أعتقد أنه بات من الضروري أن نتجاوز العموميات، وقتٍ أتتْ كلمة صديقي (النموشي) لتعطيني الحجة والفرصة لذلك.

وليس في نيتي أن أنغمس في علم الحشريات، ولا في علم التشريح، عندما أتكلم عن الدخداخيات؛ فهذا ليس من شأني.

(1) "Defen se capital -idees ,Revolution, no 270, du 18 au 24 avril 1968.

ولـن يُعِيـق هـذا أحـدًا عـن أن يقـول: إن الحشرة تتكـون بشـكل عام من رأس وجسـد وأرجـل، وهـذا أمـر كانـت تعرفه جـدتي، رحمها الله، كـما يعرفه أي عـالم، فـما يهمني هـو الخصائـص المورفولوجيـة (التكوينية) التـي تنفرد بها الدخداخيـات بشـكل خاص.

ويجـب أن نكـرِّر هـذا: إن رأسـها في الخارج، لسـت أدري أيـن.. ولكنني أراهـن أن (بـن جوريـون) لا بـد أن يعرف تمامًـا أين، تمامًـا كما يتابـع بانتباه- ونحـن نراهـن على ذلـك - كلَّ ما يجري اليـوم في بـراغ، وفي فرصوفيا، وحتى في موسـكو؛ حيـث أعلـن بريجينيـف -منـذ قليـل- ضرورة تدعيـم الجبهـة الأيديولوجيـة، ومـن المؤكـد أن رأس هـذه الحـشرة، وفكرهـا، والإرادة التي تسـكنها مـن اهتماماتنـا، ولكـن شـعوب العـالم الثالـث كلهـا لا تعـرف عنها شـيئًا مـا، ولـو كان ذلـك جزئيًّا ومـن طريـق الاختبار.

في هـذا المجـال، يملـك كل امرئ عـلى الأقل فكرة بسـيطة، أنـا أعرف ما يعرفـه راعـي الغنـم، وراعـي الغنم يعـرف قدر مـا أعـرف، والباقـي ثانوي، فهو مجرد مسـألة شـكلية.

ولا داعـي إذن أن ننصرف إلى دراسـة هذه النقطة دراسـة علميـة. لنتكلمْ بالأحـرى عـن الأرجـل المحليـة للدخداخيـات؛ فالثـورة الثقافيـة في الصين، وتصريحـات بريجينيـف، تلتقيـان عـلى الأقـل حـول هـذه النقطـة، ولا يتعلق الأمـر هـذه المـرة بالحس المشـترك، بـل يجب التمتـع بتجربـة حقيقيـة، وأفكار واضحـة جـدًّا؛ ففـي أحـد الميادين، وهـو ميـدان الأفـكار الـذي تعمـل فيه الدخداخيـات عملهـا الأشـد خبثًـا هنـاك الـشيء الكثـير نقولـه، ويجـب أن نختـصر، يجـب أن نسـير بخطـوات قصـيرة؛ مثـل لمـام السـنابل، ونقطف من هنـا وهنـاك زهـرة صغـيرة، وذلـك دون أن نصـل إلى (باقـة الـورود)؛ لأنه - بالضبـط - لا تفـوح منـه رائحـة الورود، أنا أؤكـد لكم ذلك، بـل رائحة شيء آخـر لا أريـد أن أذكـره هنـا؛ لئـلَّا تمتـد أيديكـم إلى محارمكم.

إذن، لنتكلم عن الأرجل مع الأخذ بالاحتياطات اللازمة؛ فالوظيفة تخلق العضو كما يقال، ويجب أن نضيف أنها تُحدِّد مكانه، وأنا أعرف أن المورفولوجيا لا تنتظر مني هذه الإضافة.

ولنقل إذن: إن بين هذه الأرجل أرجلًا تقع قرب رأس هذا الحيوان، وأخرى تقع بالقرب من ذنبه؛ فالأولى هي في الوقت ذاته (مجسات) تلتقط المعلومات من الرأس، وتنقلها إليه، والثانية ليست سوى أرجل مهمتها التنفيذ.

ولكنها لا تفكر، لا الأولى ولا الثانية، الرأس هو وحده الذي يفكر.. واعذروني مرة أخرى على هذه الإضافة.

ما يهمنا إذن، غاية الاهتمام، هو الشيء الذي يُنفِّذ وكيفية تنفيذه؛ أي أننا نهتم بكيفية مرور الدافع العصبي، الذي يحمل الفكرة والإرادة، من الرأس إلى آخر رجل، وإلى الذنب، وبما يحمله.

هنا أيضًا، لابد من توضيح، كل امرئ يلاحظ الظواهر – العادية وغير الاعتيادية – من زاويته الضيقة؛ فكسوف الشمس – مثلًا – يهم عالم الفلك والخباز، إلا أن الأول يراقبه بأجهزة مناسبة، والآخر يكتفي باستعمال يده، كحاجز يضعه فوق عينيه، وممَّا لا شك فيه أن هذين الرجلين يريان الأمر ذاته، ولكنه بالنسبة لهما يملك الوجه نفسه دون معناه. إن هذا التوضيح ضروري جدًّا فيما يخص أرجل الدخداخيات.

هناك مثلًا نساء مسنات ساذجات في الجزائر، يرين هذه الأرجل وهي تعمل، وبائع الفحم يراها، وهو يقوم بوزن بضاعته، وأنا أراها أيضًا، دون أن أغادر زاويتي التي أكتب فيها مقالتي الآن.

الواقع، أن طبيعة عملي، تجعل نافذة ملاحظاتي تدخل في ميدان الأفكار، وأنا أرى – بالطبع – من نافذتي تلك شيئًا، مما يجري في الميادين المجاورة؛ وعلى الأخص ميدان الاقتصاد، أو التخطيط المديني.

إن طريقة صف أوعية الأزهار- على جانبي الشارع المؤدي إلى (قصر الشعب) - تعنيني بعض الشيء. فإذا تغيرت، أنزعج، وقد تنزعج كذلك العجوز، أو الفحام إذا مرَّا من هناك، ولكنني لا أعتقد أن لدينا الانطباعات ذاتها؛ فانطباعاتي تترجم بعلامة استفهام.. إنها مهنتي، هذا كل ما في الأمر.

لكن الميدان الذي أقوم فيه بالملاحظة بشكل خاص، هو ميدان الأفكار، وهنا أيضًا تختلف تجربتي وانطباعاتي، عن تجربة المرحومة جدتي وانطباعاتها؛ فتجربتي تدفعني إلى طرح الأسئلة: ما نوع الاهتمام الموجود في رأس (الدخداخيات) تجاه الأفكار التي أحملها؟ التي تحملونها أنتم؟ التي نحملها جميعًا في هذا البلد؟ ذلك هو السؤال الذي يجب طرحه، إذا أردنا الدخول في صميم الموضوع؛ أي (معرفة ما تنفِّذه الأرجل).

من الواضح، أن الرأسمال الفكري لبلد ما جوهري بالنسبة له، بقدر (أو أكثر) مما هو جوهري رأسماله بالدينار، أو رأسماله بالدولار، أو حتى رأسماله البترولي، والأمر بالنسبة لهذا الرأسمال الأخير، واضح: (50) بالمئة من ريعه تبقى في الخارج، بناءً على تقديرات دقيقة.

لقد بدأت اللوحة تتضح، وهي تزداد وضوحًا بما فعله العراق، لكي يستعيد جزءًا من هذه النسبة المئوية؛ فقد اتخذ العراق منذ فترة قصيرة قرارًا أعاره الغرب أهمية بالغة، وهو يخص حقل الرميلة، الذي قرر أن يستثمر بوسائله الخاصة، ومهما يكن من أمر، فإنه من واجبنا أن نُعير رأسمالنا الفكري على الأقل الاهتمام ذاته، الذي توليه إياه (الدخداخيات) فهذه الأخيرة تعرف كيف تقدر الأشياء حق قدرها، في هذا الميدان كما في الميادين الأخرى، ونحن نستطيع أن نهتدي بتقديراته، ولكنه بالطبع يحتفظ بسره لنفسه، وعلينا أن نخلق بأنفسنا الآلة التي بها نزن الأفكار، أولًا لاستعمالنا الخاص، ثم لكي تقدر الاهتمام والصعوبات الخاصة للدخداخيات في هذا المجال ذاته.

تلك هي في الواقع المسألة في وجهيها الاثنين، وهي مسألة صعبة بالنسبة لنا.

في بادئ الأمر، لأننا لا نزال حديثي العهد في هذا الموضوع، وبالنسبة للدخداخيات بعد ذلك؛ لأنها لا تستطيع أن تقوم بعملها هنا كما تفعل بالنسبة للبترول مثلًا.

فالواقع، أنه يسهل نسبيًّا على الدخداخيات أن تحتفظ بـــ (80 بالمئة) من الإنتاج البترولي؛ فهذه مجرد قضية محاسبة، إنها مسألة تحرير فاتورة التنقيب والتسويق؛ فبالإمكان التوصل إليها بمجرد دفعها إلى الأمام.

لقد حمل المغفور له الشجاع (مصدق) معه إلى القبر تجربة، لا تعادلها تجربة في شدة مرارتها، ولا في قوة العبرة التي تعطيها، ولكن كيف يُمكن أخذ (80 بالمئة) من (الرأسمال الفكري) لبلد نام؟ هناك بادئ الأمر طريقة خط الأنابيب الذي لا يمتص هذه المرة بترَول البلد، بل موارده الضعيفة من الطاقة الفكرية، وقد أشرت سابقًا إلى التحقيق الذي قام به باحث اجتماعي إيراني حول هذا الموضوع.

إن طريقة خط الأنابيب شائعة إذن في ميدان الأفكار، ولكنني عندما أشرت في مقالي قبل الأخير إلى الأطباء الجزائريين الثلاثمئة المتواجدين في منطقة باريس ليس إلا، كنت أحتفظ ببعض التوضيح، كم يبلغ - في عداد مفكرينا المستقرين اليوم خارج الحدود الوطنية - عدد الذين ركبوا البحر من تلقاء أنفسهم؟ وكم يبلغ عدد أولئك الذين أُرغِمُوا على ركوب البحر؟ أي بكلمة أخري: كم عدد الفارين؟ وكم عدد المنفيين؟ إن الأولين لا يهمنا أمرهم إلا من أجل تقدير عمل خط الأنابيب الفكري.

بعد ذلك أترك حالتهم للأخلاقيين، ولكن ما يهمنا هو الآخرون المنفيون، خاصة فيما يتعلق بالعمل الخاص، الذي تقوم به (الأرجل

المحليـة للدخداخيـات)، وهـذا بالضبـط موضـوع حديثنـا في هذه الأسـطر.

آه! بالطبع، لم يُنفَ المنفيون بمرسوم نشر في الجريدة الرسمية.

هنـا نَلِـجُ في (لعبـة الدخداخيـات) الأشـد غموضًـا، والأشـدِّ دهـاء في ميـدان الأفـكار، الأمر بسـيط: إنهـا تضع رجـلًا في الخدمة وراء البـاب، الذي يجـب أن يجتـازه هـذا المفكـر أو ذاك، وقـد جـاء يعمـل في بلـده، وإذا بالبـاب يُغلـق بهـدوء في وجهـه. لمـاذا؟ آه! هناك ألـف وسـيلة لإغلاق البـاب هكذا. مـن الإغاظـة إلى تدبـير أمر ما، سَـلْ هـذا المهنـدس الزراعي (وهـو في نظري أفضـل مـن في فرعه): لماذا هـو الآن في الخارج؟ وسـل ذاك الطبيب الجزائري، وهـو متخصص بطـب العيون من الدرجـة الأولى: لماذا هـو الآن رئيس عيادة في ألمانيـا؟ عندهـا سـتفهم كيـف يغلق البـاب في وجهـه المنفِيِّ. إنـه عمل آلي: (رأس الدخداخيـات) ترسـل الأمـر، و(الرجل) تفعـل الباقي.

في الواقـع، إذا أردنـا أن نكـون فكـرة، ولـو تقريبيـة، عـن ضخ رأسـمالنا الفكـري وطـرده، يجـب القيـام بتحقيق يشـمل كامـل أرض الوطـن، وفي كل الأماكـن التي تُسـتخدَم فيها كشـعار كلمـة (ثقافـة) أو (ثقـافي)، وبالطبع، أنا لا أملـك الوسـيلة، ولا الزمـن للقيـام بذلـك، ولا حتى متسـعًا مـن المكان في هذه الأسـطر.

ولكـن صديقـي (النمـوشي) أشـار إلى وسـيلة تعطينـا فكـرة ولـو كانت عـلى الأقـل جزئيـة، فهو يشـير بالضبط كيـف تضـع الدخداخيـات في الدول الصغـيرة (مجسـاتها التـي تُشـوِّش عـلى مراكزنـا العصبية).

والجامعـة – بالطبـع – إحدى هذه الوسـائل؛ إذ يمكنـك بالتالي أن تعرف أهميـة الإضراب في جامعتنـا مؤخـرًا، والـذي انتهـى – فعلًا – بعـودة الأمور إلى طبيعتهـا بفضل حكمـة طلابنا.

لقـد أخفقـت الدخداخيـات – ولا شـك– في إيصـال سـنة كاملـة مـن

عمر شبابنا المجتهد إلى العدم، ولكنها لا تقبل الفشل: ماذا سيدفع هذا الطالب، وهذه الطالبة من الطلاب الذين سجلوا حضورهم في أيام الإضراب؟ هناك إشارات بدأت تدل على ما سيجري: ماذا يُعلَن عن الامتحانات المقبلة؟ لقد ترك (سقراط) - فيما ترك - كلمة خالدة حينما تكلم عن (قارضي الأفكار). حيثما تفوح رائحة فكرة ما، تستيقظ عند الدخداخيات غريزة الحيوان المتوحش، الذي يشتم فريسته، إنها (قارضة الأفكار)، لقد اكتسبْتُ - أو بالأحرى - أكملت تجربتي حول النقطة، من الزاوية الصغيرة التي أراقب منها الأشياء؛ فمنذ خمس سنين استدعتني الحكومة الجزائرية من الخارج لإنشاء مركز للتوجيه الثقافي، ولقد أنشأته بالفعل في الزاوية الصغيرة التي أنا فيها الآن، وهو يعمل منذ أربع سنوات، وفي برنامجه ملف مشروع المرسوم القاضي بإنشائه، والذي لم يُنشَر في الجريدة الرسمية حتى الآن. ولا يزال هذا الملف في الواقع محفوظًا منذ ثلاث سنوات، في خزانة المكتب التشريعي.

ولقد سألت خلال هذه الفترة - الشخص اللطيف المسؤول عن هذا المكتب، فأجابني بلطف: إن المرسوم سيُعرَض للتوقيع، حالما يقدِّم الوزراء رأيهم فيه، وإن بعضهم - وعلى الأخصِّ وزير الاقتصاد آنذاك - لم يرسلوا رأيهم بعدُ، إنها الإجراءات العادية. ولكن، ما هو عادي في بلدٍ ما، يصبح غير عادي في بلد آخر، إلا أن تشريعنا لم يتبدل منذ سنة 1962م، وإذا كان يجب أن ننتظر الضوء الأخضر من بعض البيروقراطيين .. فإننا سننتظر طويلًا.

إذن لقد عمل المركز بوسائل مؤقتة، من جهة أخرى، لم يكن المركز مخصصًا لإعطاء شهادات، بل لتقديم بعض الأفكار الجديدة، على الأخص في مجال الاقتصاد والثقافة في بلد من بلدان العالم الثالث؛ أي في مجال علم اجتماع البلدان النامية.

ولكنه، وفي هذا المجال بالضبط، يهم الدخداخيات كثيرًا، وهو -

لكونه لا يحظى بالغطاء الرسمي - يقدم فريسة سهلة لغريزة قرض الأفكار، عندها لن أقول أكثر من ذلك رحمة بالقارئ.

رغم ذلك، يصبح من غير المجدي أن نندهش؛ لأن السيد (موسوي) لم يفكرْ في دعوة مدير مركز التوجيه الثقافي إلى الاجتماع، الذي عقده منذ فترة وجيزة على حين غرة بناءً على نداء قسنطينة.

ولكننا نندهش أن يكون وزير الإعلام هو نفسه، الذي أخذ على عاتقه هذا الأمر، ربما هناك (ثقافتان): تلك التي يهتم بها هذا الوزير، وتلك التي يهتم بها بعض الجزائريين منذ ربع قرن.

في هذه الحالة، تقتضي أن نأمل في (نداء قسنطينة) آخر، يُوجَّهُ خاصة إلى هؤلاء الجزائريين، وهذا يوضح كم هو غير كافٍ وحده الاهتمام الذي توليه السلطة الرسمية، في العديد من المناسبات للحياة الثقافية في هذا البلد، وأن يليه تفتيش يأتي بعد المبادرة في مرحلة التطبيق.

ولنقل من جهة أخرى: إن الدخداخيات، وقارضة الأفكار، وقاتلة الأفكار، لا تحتاج دائمًا إلى الأرجل المحلية؛ فهي ربما تستغل أحيانًا إهمالنا، في سبيل تقليص رأسمالنا الفكري.

في بعض الشوارع، من الخطر أن تترك فتاة تسير وحدها في الليل، وأحيانًا حتى في النهار، كذلك من الخطر أن تترك فكرة لوحدها، إننا نريد أن نأمُل أن السلطات الرسمية تفكر في هذا، وتعمل على الدفاع عن الأفكار، وأنا أخشى أشد الخشية أن تكون فكرة نداء قسنطينة قد خطفت .. ويذكرنا التلفاز بالمناسبة (رومان رولان) الذي يجعل أحد شخصيات روايته يقول: «لا يكفي أن تبدع أفكارًا، بل يجب أن تُؤَمِّن لها الحياة».

هنا تكمن المسألة كلها.

سوق البركة [1]

عـلى طريـق (مهنـة)، وفي محلة (بـو مدفع)، يقع سـوق يعُجُّ بالنـاس طيلة أيام الأسـبوع السـبعة، لا توجـد فيه مطاعم شـعبية، ولا خيام يضـع البقالون تحتهـا بضائعهم في الهـواء الطلق، كما في الأسـواق العادية التي تجـذب زبناءَها المتنوعـين مرة واحدة في الأسـبوع.

لا، لا يوجـد عـلى الطريق في هذا المكان سـوى سـياج مـن قصب يلاحظ مـن ورائـه بيـت من البيـوت الريفيـة المؤلفة من غرفـة واحدة أو مـن غرفتين، والتي تُسـمَّى (نوالة).

ولكن، أمام هذا السياج، هناك رتل من السيارات المختلفة أنواعها.

إن الصديـق القديـم الذي حكى لي هـذه الرواية، بعد زيارتـه لهذا المكان، وكان ذلـك منـذ عـشرة أيـام، أحـصى فيـه يومهـا قرابـة ثلاثـين حافلـة ومئـة وخمسـين سـيارة خاصـة وبالأجـرة.. الأمـر مهـم جدًّا كـما ترون.

هـذه العربـات تجلـب زُبنـاءَ مـرضى مـن كل الأجنـاس والأعـمار، منهم مـن أتـى عـلى عكازيْـن، ومنهـم مـن كان محمـولًا على ذراعـي أحد مـن أهله أو عـلى نقالة.

الجميـع يـأتي طلبًـا للشـفاء، والشـخص الـذي يمنحهـم الشـفاء يُدعَـى (الشـيخ الأخـضر)، إنـه شـاب، ويبـدو أنيقًـا في ثيابـه العربيـة.

نـراه يبدأ عمله في سـاعة مبكرة، تقريبًـا مع شروق الشـمس، ونراه يغادر

(1) "le souk de la Baraka "Revolution africaine ,semaine du 15 au 21 mai 1967.

المكان قرابة السـاعة الرابعة، في سـيارة خاصة يقودها سـائق.

هناك حماس، وهناك أسلوب، كما نرى.

إلا أن الشـيخ ليـس قليـل الذوق حتـى يضع تسـعيرة للبركة التـي يهبها، يضـع النـاس في كفـه المبلـغ الـذي يشـاؤون، ولكـن المجمـوع كبير جـدًّا على مـا يبدو.

إن صديقـي الـذي راقـب المشـهد بـروح المناضـل الإصلاحـي القديـم والمخلـص لعهد (بـن باديس)، وفي الوقت نفسـه بروح التاجـر الماهر في تقدير الأشـياء، كان قـدر دخلـه في ذاك اليـوم بأكثـر من خمسـمئة ألف فرنـك قديم.

إذن ودون أن نكـون مبالغـين في الأمـر، إن الشـيخ الأخضر يكسـب أكثر بكثـير مما يكسـبه طبيـب حائز عـلى دكتـوراه في الطب.

في الواقـع، مـا يهمنـي ليـس مشـكلة مجـبر العظـام المكسـورة؛ فاسـتغلال المطبِّبـين الدجالـين للمرضى مشـكلة توجد في كل العصور، وهي متشـابهة في كل البلـدان، وهي مشـكلة تسـترعي - بالأحرى - انتبـاه الأطبـاء أو وزارة الصحة.

إن مـا يسـترعي انتباه علم الاجتـماع هو ذلك الجانب الآخـر الذي أوحى في المـاضي إلى (زولا) بالتحديد روايته الشـهيرة حول كاتدرائية (لورد).

إلا أننـي أتكلم عـن الموضوع على سـجيتي؛ ففي إحدى مقالاتي السـابقة عـن (بـن باديـس) المتصوف، كنت قـد بينت أننـي لا أضمر بغضًـا ولا أعطي أحكامًـا مسـبقة حيال معتقـدات أو مواقف أجدهـا جدُّ شريفة.

فضـلا عن ذلـك - وأنا أنتهز الفرصـة لأقولها هنا- إذا كنـت فاجأت أحدًا بمقـالي، فإنـه يتوجب عـلى أن أطمئنه أنني لم أشـوِّه التاريخ الشـخصي لمؤسـس الإصـلاح الجزائـري، فهو بنفسـه أوضـحَ موقفه وبشـكل جيد في رسـالة تعود إلى سـنة 1925م، حيـال الفكر الصـوفي الحقيقي، كفكـر الجنيد مثلًا.

كما أنني اليوم لا أخون عواطفي تجاه عمل تربوي إسلامي جميل كالذي تقوم به زاوية (الحمل) مثلًا، في ظروف يجب على البلد فيها أن يجد معنى لقيمه الأخلاقية والروحية، لكن مشكلة المُطبِّب الدجال التي نحن بصددها ليست مشكلة مسجد ولا زاوية، إن مثل الشيخ الأخضر ليستْ من جهة أخرى، سوى حالة بسيطة، في حين يبدو أننا أمام ظاهرة اجتماعية نصادفها - تقريبًا - في كل مكان على امتداد أرض الوطن.

في (عنابة)، هناك (لالة الخضراء) - لا نزال في لون الجنة - التي توزع البركة اليومية على أناس يأتون للبحث عنها في دارها، في حلقات استغفارٍ تعقدها لهم.

وفي (سوق أهراس)، هناك بائع معجزات آخر يستخرج الرصاصات التي أصيب بها المجاهدون في معارك الأدغال، ولكن - إن صدف على إثر ذلك وخطرت على بال المجاهد الذي رأى الرصاصة تستخرج من جسد أمام ناظريه تلك الفكرة غير المناسبة بأن يستشير طبيب أشعة - فإنه حينئذٍ سيجد الرصاصة لا تزال قابعة بسكينة في المكان نفسه من جسده.

إنه جزاؤه.. حين ساوره الشك، فهل يخطر ببال أحد أن يُخضِع البركة إلى إثبات بالأشعة السينية؟

إنها تجارة تزدهر في كل مكان تقريبًا، ولا نتكلم هنا عن تلك العرافة، في منطقة (بليدا)، التي تكشف لأناس (محترمين) يأتون لرؤيتها - ما تراه من أشياء مدهشة من خلال بيضة.

لنعد إلى سوق (بو مدفع). فهو محور اهتمامنا، أكرر: إنني أترك على حدة الجانب الذي يثير اهتمام الجهاز الطبي أو وزارة الصحة.

إن سوق (بو مدفع) لا يثير اهتمامي إلا لأنه يقدم للناظرين علامات

تطـور نفـسي واجتماعـي مهمـة جـدًّا، وفي الواقـع، إذا وضعنا أنفسـنا في رؤية زمنيـة تعـود بنـا إلى الواقعة بين سـنة 1930م (وهي تقريبًا السـنة التي أُسِّـسَ فيهـا العمـل الإصلاحـي)، وبين سـنة 1945م (وهي السـنة التي بـدأت فيها الحركـة المسـلحة)، فإننا نجـد أن تاريـخ هذا البلد يسـير في تطـور تصاعدي.

إن كل الطاقـات الأخلاقيـة والسياسـية وكل الطموحـات والضغوطات المتراكمـة خـلال تلـك الفـترة هـي التـي تسـمح للبلـد أن يتجـاوز المرحلـة الصعبـة مـن تاريخه، وأن يدخـل في خِضَمِّ ثورتـه التي سـتكون بالضبط ذروة هـذا التطـور التحضيري.

إن رأس المـال الثـوري الـذي كان متوافـرًا عشـية الواحـد مـن نوفمـبر/ تشريـن الثـاني مـن سـنة 1954م، كان في الأسـاس ثمـرة هـذا التطـور الذي قامـت الحركـة الإصلاحيـة فيـه بـدور رئيـس، وإذا كنـا نلاحـظ بعـد الثورة حصـول انهيـارات سريعـة في بعـض المواقـع، فإننـا عـلى العكـس مـن ذلك، نجـد مـا يقابلهـا مـن تبديـد لبعـض رأس المـال الثـوري، وأسـارع إلى القول بأننـا لا نجـد هـذا التبديـد فقط في سـوق مثل سـوق (بـو مدفع)، إن تبسـيط مشـكلة معقـدة هو مـا دفعنـي إلى تركيز الانتباه عـلي مظهر مـن مظاهرها يبين معـالم التقهقـر ويعيـد النظـر في الهـدف الرئيـس للثورة.

إن الحالـة التـي يقدمهـا (بـو مدفـع) تسـمح لنـا بقيـاس تناقـض الحركة الإصلاحيـة التـي تخلـت عـن مواقعهـا في المعركـة، في الوقـت الـذي كانـت فيـه معـاني الإصـلاح تأخـذ أهميتهـا في بلد يواجـه فعـلًا تحديـاتٍ لا تُصدَّق، والشـيخ الأخـضر ليس سـوى حالة بسـيطة تقدم صـورة تقريبية عـن التقهقر المؤسـف الذي نعيشـه.

بالإضافـة إلى ذلـك، فإننـا نتسـاءل: أيـن مُنِحَ هذا الشـيخ إجـازة يمارس

بنـاءً عليهـا نشـاطه الفريـد مـن نوعـه؟ يقـال: إن ذلـك حصـل في (لسـنام)، ولكـن لنـا الحـق خاصـة في أن نتسـاءل: مـن يدفـع للوقـوف أمـام نوالته كل هـذه الحافـلات الثلاثـين والسـيارات المئـة والخمسـين التـي تـأتي مـن كل أطـراف البلد؟

إن البركـة لا تنتـشر وحدَهـا في كل طـرف مـن أطـراف العالم، مـن الذي نقـل شـهرتها إلى أطـراف العالم؟

إن أبنـاء جيـلي يفهمونني عندمـا أطرح هذه الأسـئلة؛ فمنذ عشرين سـنة فقـط، كان الإخـوان الذين يذهبون كل سـنة على زردة الشـيخ المرابط (الولي) أو ذاك، لا يدفعـون سـوى نصـف التعريفـة في القطـارات، وكان يوجـد مـن بينهـم بعض أبنـاء المسـتعمرين الذين أدركت قلوبهم شـيئًا مـن الروحانيات. ولكـن، كنـا نعرف آنـذاك على الأقـل من الـذي كان يُسـيِّر الأمور.

الفصل الثاني
في البناء الثقافي

نداء قسنطينة
مشكلة الثقافة[1]

لقد افتتحت قسنطينة أسبوعها الثقافي الذي أراد القيِّمون على تنظيمه أن يكون على أشد ما يمكن من الرونق والبهاء، وأعتقد أنهم قد نجحوا في ذلك.

لقد كاد هذا الاحتفال أن يحتفظ بطابعه المحلي، وهذا الطابع بحد ذاته ذو قيمة كبيرة؛ لما يتمتع به أهل قسنطينة من ذوق رفيع وتقاليد قديمة غنية، ولكن الرئيس (بو مدين) هو الذي دشنه، وهذا أمر يُضفِي على الاحتفال الطابع القومي، وعلى هذا المستوى، يجعلنا الاحتفال نفكر عرضًا بمسألة الثقافة.

أضف إلى ذلك أن الرئيس ذاته هو الذي عرض علينا هذه المسألة في شكل مشروع، أعلن عنه خلال زيارته لقسنطينة، ويتعلق الأمر بتكوين لجنة في القريب العاجل في الجزائر، تكون مهمتها وضع برنامج إنماء ثقافي على مستوى الوطن.

هذا مشروع يجب أن نُصفِّق له بكلتا يديْنا.

إلا أن التفكير لا يكون مجرد راحةٍ عضلية، وهو ليس مجرد تصفيق باليدين نعبر به عن حماسنا، كالولد الذي ينظر بعينين يملؤهما السحر والاستغراب إلى عصفور أزرق جميل ينطلق من أمامه، إن تحقيق المشروع أو عدم تحقيقه قضية أخرى، وهي تعني المثقفين المدعُوِّين إلى البدء بالعمل

(1) "l'Appel de Constantine: le problem de la culture "Revolution africaine, no 268, du 4 au 10 avril 1968.

الجـاد، وهـم يرتكبـون خطـأ جسـيمًا، إذا ضيعـوا الفرصـة التـي يحملهـا هذا المـشروع الـذي وعدنـا به.

إن المـشروع يتنـاول على الأخص مسـألة، يتوجب على المثقفـين أن يبحثوا فيهـا، طالمـا أن الفرصـة قد سـنحت لهم بذلك، أعنـي أن تُوضَـع للمرة الأولى كل الالتباسـات الفولكلورية والسوسـيولوجية التي تحيط بمفهـوم (الثقافة)، إن هـذا المفهـوم يكـون في الواقع المقيـاس الصحيـح للمسـتوى الحضاري في بلـد معـين، وللطاقـة الكامنـة في المجتمـع، أكثـر ممـا يُقدِّمُـه مقيـاس الآلات وعددها.

لم تكـن ألمانيـا تملـك سـنة 1945م الآلات ولا المـاركات ولا الدولارات ولا حتـى السـيادة القوميـة، لم تكـن تملـك سـوى رأسـمال واحـد لا يمكـن تدمـيره، الحقيقـة أنـه لم يكـن للقنابـل الفوسـفورية ولا للدبابـات القدرة على أن تدمـر ثقافـة ألمانيـا، وأنـا لا أقـول (علمهـا) ولا (تقنيتهـا) وهمـا التباسـان آخـران يُشوِّشـان كذلـك معنـى الثقافـة؛ لأنهـما يضعـان هـذه الأخـيرة تحت سـلطة المدرسـة أو المصنـع.

ذلـك أن مـن أعـاد بناء ألمانيـا بعد سـنة 1945م ليـس العـالم ولا التقنيَّ، فضـلًا عـن أن معظـم العلـماء والتقنيـين مثـل (فـون بـراون) كان قد اسـتولى عليهـم الأمريكيـون أو السـوفييت وعدُّوهـم غنائم حـرب، إن من أعـاد بناء ألمانيـا هـو الروح الألمانيـة، روح الراعـي والفلاح والعامل والحَّمال والموظف والصيـدلي والطبيـب والفنان والأسـتاذ.

وبكلمـة واحـدة، إن الثقافـة الألمانيـة – دون التبـاس، ودون تضييـق اجتماعـي أو فكـري لمعناهـا – هي التي أعـادت بناء بلد (جوته) و(بسـمارك).

إن رجـل (المعجـزة الألمانيـة) بعـد الحـرب ليـس (إيرهـارت) كـما تدَّعِي الصحـف والإعلام، فقبل الحرب وقبـل (إيرهارت) هناك (شـاخت) وهناك

(معجـزة ألمانيـة)، وهـذه الأخـيرة سـتتكرر طالما بقي هنـاك ثقافـة ألمانية.

أضـف إلى ذلك أن حدود (المعجزة) هي حـدود ثقافية لا يمكن للمعجزة أن توجـد خارجهـا، لقـد اتضح لنـا هذا الأمـر مـع الدكتور (شـاخت)؛ فهو لم يسـتطع ألبتـة أن يكـرِّر هـذه المعجـزة التي أنتجتهـا - ولا تـزال - بلاده، في بعـض الدول الآسـيوية التي اسـتقلت حديثًـا، والتي اسـتدعته لهـذا الصدد، لقـد بذل جهدًا كبيرًا، وشـمَّر عن سـاعديْه، وضرب بعصاه السـحرية، ولكن شـيئًا لم يخـرج مـن علبة هذا السـاحر، اللهم سـوى بعـض الخيبة.

ولنقـل عـلى هامش حديثنـا لهؤلاء النـاس الذين ينطقون بأصـوات أناس آخريـن، لا يريـدون أن يعـرف أنهـم مصـدر تلـك الأصـوات، لنقـل للذيـن يظنـون أن المشـكلة الاقتصاديـة هـي قضية لغـة أو كلام مُحرَّف، لنقـل لهم: إن القضيـة ليسـت حتـى قضيـة أرقام، وإلا لمـا كان سـاحر أرقام مثل (شـاخت) ليفشـل في مهماته الآسـيوية.

ولكن، لنتجاوز هذا الأمر..

ولنلاحـظ - رغـم ذلك - هـذا التأثير غـير المتوقع للثقافة، حتـى في الميدان الاقتصـادي، غير أنني لا أعتقد أن الأسـبوع الثقـافي الباهر الـذي افْتُتِحَ مؤخرًا في قسـنطينة، يعكـس مثل هـذا التأثير في نظر الزائر أو المشـاهد الذي يشـارك في مسـيرة هذا الاحتفـال، بانتباه قد يكون شـديدًا، وقـد لا يكون.

هنـا، تبـدأ المشـكلة فعلًا بإثـارة اهتمامنا، ونحـن - في الواقـع - في مرحلة تحجـب فيهـا الظواهـر الخارجية - نوعًا مـا - الطبيعـة العميقة.

وهـذا أمـر يعرفـه علـماء الطبيعـة منـذ أمـد بعيـد: إن بعـض الظواهـر العرضيـة تُضلِّـل الأفـكار حـين تحجب - بشـكل تـام، أو تقريبـي - الظواهر التـي تكـون موضـوع الدراسـة.

إن مفهـوم الثقافـة أيضًا محجوب اليـوم بعض الشيء بالإنتاجـات الثقافية

التـي تُعـرَض أمـام أعيننـا في أشـكال فولكلوريـة وحرفيـة، وذلك أثنـاء هذه الاحتفـالات المثـيرة للاهتـمام، والتي علينا أن نشـجعها.

إننـا نجـد – في بعض الأحيـان، على مقربة مـن مصنع للمعـادن – أكوامًا مـن المناشـير، أو بقايـا المعـادن، أو حتـى صفائـح جميلـة مـن الفـولاذ، تـأتي كلهـا مـن آلات الصقـل أو التلميع أو مـن آلات التركيب، ونجـد ضمن هذا المصنـع كذلـك آلات جميلـة جدًّا.

كل هـذا يكـون – في الحقيقـة – جـزءًا من الإطـار العام، وهو لا يُشـوِّهه في شيء، بـل إنـه لا ينفصـل عـن طبيعـة التعديـن ولا الصناعـة، فهـذا ليـس هدفهـا ولا مضمونها.

كذلـك أمـر النتاجات الفرعيـة أو النتاجـات المباشرة للثقافة، إنها ليسـت سـوى الثقافـة، ولا تُقـدِّم أي فكرة عـن أوائليتها ولا عن دورهـا في المجتمع.

يترتـب علينا – إذن – أن نعرض للمشـكلة بطريقة منهجية، علينا أولًا أن نحكـم بالعـدل عـلى بعـض الخلط وعلى بعـض الاسـتعمال المفـرط للكلمات، ممـا يجعـل مفهوم الثقافـة أمرًا غريبًـا، لا أصـلًا دقيقًا له ولا معنـى واضحًا.

علينـا – أولًا – أن ننتهـي مـن البلبلـة الفكريـة المضرة جـدًّا، والتي تجعل مـن كلمـة ثقافـة مرادفًا لكلمـة (علم).

هنـاك كلمـة لـــ(رابليه) تبُت في هـذه القضية بتًّا قاطعًـا، يقول هذا الأب الروحي (للأنسـية) الفرنسـية: «العلم بلا ضمير مفسـدة للروح».

إن العلـم يعطـي المعرفـة، إنـه يعطـي اللباقـة والمهـارة، وفقًـا للمسـتوى الاجتماعـي الـذي يتـم عليـه البحـث العلمـي، والعلـم يعطـي امتـلاك القيم التقنيـة إلى تولـد الأشـياء.

والثقافة تعطي العلم، إنها تعطي السلوك والغِنَى الذي يوجد على كل مستويات المجتمع؛ والثقافة تعطي امتلاك القيم الإنسانية التي تخلق الحضارة.

الثقافة والعلم ليسا مترادفيْن.

الثقافة تُولِّد العلم دائمًا، والعلم لا يولِّد الثقافة دومًا، ولا يمكن استبدال أحد هذين المفهومين بالآخر، إن هذا التمييز أساسي، أولا: لدى وضع برنامج يهدف إلى الارتفاع بثقافة بلد ما إلى أعلى مستوى من مستويات الحضارة، وثانيًا: في فهم الظواهر الاجتماعية والسياسية ذات الأهمية الأساسية.

إن فيتنام لم تستطع أن تجابه الإمبريالية بالعلم الذي لا يزال في مراحله الأولى، وإنما بإدراكٍ يُجسِّده زارع الأرز كما يجسده صاحب أعلى رتبة، أو المفكر الأشد اطلاعًا.

كذلك، لم يستطع الشعب الجزائري أن ينتزع استقلاله بالمعرفة التي تتمتع بها النخبة فيه، بل بالإدراك الذي وُجِدَ على المستوى الشعبي في وجه الاستعمار، هناك مشكلة تطرحها النخبة، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار تلك النخبة التي استقلَّت في الخارج (هناك 300 طبيب مقيم في منطقة باريس ليس إلَّا).

وأخيرًا، لم يحصل فشل عسكري في سيناء، كما يقول أحد علماء الاجتماع الفرنسيين، بل ظهر (فشل ثقافي) في حزيران الماضي، لم تكن القضية قضية إخفاق العِلْم العسكري، بل إخفاق الثقافة وحسب.

هكذا هو الأمر، في كل الأوقات الصعبة في التاريخ: الثقافة هي التي تكون طَوْق النجاة للمجتمع، حين يتعرض لخطر الغرق.

أضف إلى ذلك أن العلم غير شخصي (موضوعي)، بمعني أن رجل العلم يكون دائمًا إنسانًا يراقب الأشياء؛ ليسيطر عليها، وليحسنها، تلك هي النظرة المنهجية (الديكارتية) لعالم الظواهر.

ولكن الثقافة أكثر من ذلك، إنها تخلق الإنسان الذي يراقب، ويراقب

ذاتـه في بـادئ الأمـر، تلـك هـي نظـرة الغـزالي أو (باسـكال) اللذيْـن كانـا يبحثـان عن تناسـق بـين عـالم الظواهر وعـالم الداخل، تلـك هي النظـرة التي تسـمح للإنسـان أن يسـيطر على ذاته، وأن يسـيطر على الأشـياء التي ابتدعتها عبقريتـه، أي بكلمـة مختـصرة أن يتحضَّر.

ومـن المؤكـد أن للثقافـة نتاجاتهـا، كـما للصناعـة نتاجـات (كصناعـة المعـادن، مثـلًا)، حتـى إن لهـا نتاجـاتٍ ثانويـة.

ولكننـا نعلـم أن النتـاج إنما هـو تمثيل لمـن ينتجه، إنـه رمز بليـغ ومؤقَّت؛ فالصـاروخ الـذي ينطلـق باتجـاه كوكـب بعيـد، ليـس سـوى رمـز للحضارة التـي ابتدعتـه؛ وبالأحـرى عندمـا يتعلـق الأمـر بالنتاجـات الثانويـة، يمكن لهـذه الأخـيرة أن تُكوِّن العديد من الأشـياء التـي تَلْفِت انتباه السـائح المُتَلَهِّف لكل مـا هـو غريب.

قـس – عـلى ذلـك– المسـتوى الـذي يهمنـا هنـا، هنـاك ثقافـة، وهنـاك نتاجـات هـذه الثقافـة، وهنـاك حتـى نتاجاتهـا الثانويـة.

إن هـذه الأفـكار تخطر في بالنا غـداة رحلة الرئيس بو مدين إلى قسـنطينة، وعـلى الأخـص حـين أعلن عـن تكويـن لجنـة تهتـم بوضـع برنامـج تثقيفي، ونحـن نعتقـد أن الأمـر سـيتعلق– خاصـة وقبـل كل شيء – بمسـألة الثقافـة القـادرة عـلى خلق الإنسـان الجديـد في الجزائـر وتصعيده.

ولنضـف إلى ذلـك أن هذه المسـألة تُطرَح حتـى على الوجه السـياسي، كما تُطـرح في هـذه اللحظة في الصين في شـكل ثـورة ثقافية.

ونحن نكون بسـطاء جـدًّا لو ظننَّا يومًا ما أن الاسـتعمار عندمـا يُعِدُّ حقائبه ويرحل عن بلدٍ يسـتعمره، يترك المكان وراءه وبكل بسـاطة نقيًّا سـليمًا.

ونكـون كذلك أشـد بسـاطة إذا ظننَّـا أن الاسـتعمار يُخـلِّي وراءه فقط وفي بعـض الأحيـان الفيتنام هنـا الكونغو هنـاك والبيافرا بعيـدًا، إنه لا يـترك دائمًا

كل هـذا وراءه بالتأكيـد، وهـذا أمـر معـروف من الجميـع، ولكنه عـلى الدوام ودون أي اسـتثناء، يـترك وراءه الطابـور الخامس، طابور خُدَّامـه القدامى، أو كـما قـال الرئيس بـو مدين، طابـور بقايـا الحركيين.

وهنـا تبدأ وتُسـتعاد مأسـاة البـلاد التي غادرهـا الاسـتعمار ظاهريًّا، ذلك أن بقايـا العهـد الاسـتعماري لا تبقـى مجـرد (كومـة) يمحوهـا مـرور الوقـت ويفتتها شـيئًا فشـيئًا.

نكون سـاذجين حقًّـا إذا ظننا ذلك، إن هـذه (الكومـة) المتروكة في المكان المُغـادَر سـتعود إليه لتصبح بسرعـة (كلًّا مُنظَّمًا)، وذلك بتأثـير إرادة مُنظَّمة لا تُضيِّـع أبـدًا وجهتها، وهـي سـتصبح ثانية أخطبوطًـا متعدد الأرجـل، يملك أرجلًا محلية، ورأسًـا مفكـرًا في الخارج.

ولا بـد عندئـذٍ من كارثـة، كتلك التي حصلت في سـيناء لكشـفه، ولا بد مـن ثـورة ثقافيـة تفصل أرجلـه الرخوة عن رأسـه المتين الـذي يفكر.

إن الثـورة التـي حصلـت في الصين ظاهرة مـن الظواهر الأساسـية لثقافة الصـين الجديـدة عـلى الصعيد السـياسي؛ فقـد فكَّكت هـذا الأخطبـوط الذي كان يُكـوِّن الطليعـة، والآلة المحليـة للهجمات الاسـتعمارية المقبلة.

ولكـن الزوبعـة الثوريـة الجديـدة في الصـين فكَّكـت تلك الآلـة، ولم تعد الأرجـل المتعـددة تسـتطيع منذ ذلك الوقـت أن تقـوم بوظيفتهـا المعتادة حين ترسـل الـرأس المفكـرة إليهـا أوامـر، من خـلال شـبكة الأرجل التـي فقدت سـيطرتها عليهـا، إن الثقافـة تتضمـن كل ذلك، وعـلى الأخـص في بلد ثوري مثـل الجزائر.

إن النـداء على هذه النخبـة أن تقوم بدورها في بناء المجتمـع الجزائري الجديد، إن عـالم الأفـكار لدينـا يجـب أن تَبنيَـه تلـك النخبة، تلك هـي مهمتها الأساسـية، وعليهـا – في هـذا المجال كذلك، ودون شـك– أن تُحـرِّر أذهاننا مـن بعض البلبلة

التي فيها. والعالم ليس مجرد (تكوين) للأشياء وللأفكار، على الأخص، فيما يتعلق بالأفكار التي يعني تكوينها الاختلال والفوضى والتوفيقية والمواطنية العالمية، أي كل ما يجعل الفكرة تفقد أصالته وقيمتها البناءة.

ليس هذا وقت الكلام عن الأسلوب، ولكن لنقل بكل بساطة: إن الأنبياء اعتمدوا الأسلوب الأشد بساطة في كلامهم إلى الجمهور، وكبار الثوريِّين مثل (ابن تومرت) و (لينين) و (ماو تسي تونج) استعملوا كذلك تلك اللغة، كذلك اعتمد المفكر (نيتشه) تلك اللغة حين وضع أسلوبه طراوة الأسلوب التوراتي التي لا توجد في أسلوب أي فيلسوف غيره.

إن مسألة الثقافة يجب أن تطرح، وأن تقوم فكريًّا، وفقًا للنظام الهرمي للحضارة.

فالحضارة ليست (كومة) من الأشياء والأفكار، ولكنها بناء يعكس عبقرية البلد وشخصيته، ولا بد أن نتمنى من جهة أخرى أن تعمل اللجنة أو المجلس المُخَوَّلان بوضع برنامج العمل وعرضه على نخبة بلدنا، أن تعمل على تذكر شروط هذا العمل، بما في ذلك شروط توزيع الكتاب، وعلى الأخص ثمنه.

وهنا تطرح مسألة الـ (SNED) برُمَّتها ولن نضيف أكثر من ذلك، ونحن لا نقوم أكثر من أن نقيس أهميةَ هذه المسألة حين نقول: إن ميدان الأفكار اليوم هو الميدان الأشد تجمُّدًا في بلدنا.

إن مفكرينا أو أغلبيتهم لجئوا إلى جبل جليدي بعيد، ولا بد من نَفَس ثوري جديد؛ لكي يذوب هذا الجليد، ولكي نجعل تلك البطاقة الحردانة تأخذ اندفاعًا جديدًا.

هذا النفس جاء على ما أظن من قسنطينة.

اللغة والثقافة[1]

منذ عدة أيام، كنت في أحد مكاتب البريد، أتحدث إلى الموظف، الجالس وراء النافذة باللغة العربية، وكان في كل مرة (يُجِيبُني) باللغة الفرنسية، لن أقول هنا كل انطباعاتي حول هذا الحوار أمام نافذة في إدارة رسمية؛ إذ يمكن أن نوجزها في كلمة واحدة: «أتمنى على الإدارة الجزائرية أن تعتني أكثر بالعلاقات العامة لديها».

هذا التمني لا يقتصر على الموظف البسيط القابع وراء نافذته، بل يتعدى ذلك إلى الموظف المحترم الجالس وراء مكتبه الوقور.

وما أريد أن أقوله هنا: إن هذا الحوار من وراء نافذة قد أدى بي إلى كتابة هذا المقال.

ولا يتعلق الأمر هنا بخلل في طريقة التعامل، فقد بدا لي الأمر أشد شذوذًا؛ لأن هذا الرجل الذي كان يُصِمُّ أذني من وراء نافذته بفرنسيته الركيكة، كان قد تَوجَّه بالحديث لتوه إلى أحد زملائه ببضع كلمات عربية سليمة.

ومما جعل هذا التصرف أشد استهجانا في نظري، أنه يُجسِّد نوعًا من التنافر المتعمد في الوسط الذي أوجده مرسوم إدخال اللغة العربية في الوظائف الرسمية.

ومما جعل هذا التصرف أشد استهجانًا في نظري، أنه يُجسِّد نوعًا من التنافر المتعمد في الوسط الذي أوجده مرسوم إدخال اللغة العربية في الوظائف الرسمية.

(1) "Laugue et culture ,"Revolution africcaine, no ,273 du gaun 18 mai 1968.

ولا بد من أن نُضيفَ، أن الرئيس بو مدين، يعطي في خطاباته المثل الحي، على الالتزام بالتعريب الحكومي، ولْنضفْ أيضًا لأولئك الذين في نظرهم أن الحقيقة تأتي دائمًا من وراء حدودنا، بأن المثل يُؤخَذ من الفيتنام.

آه! تلك هي حجة دامغة! إن الوزير الفيتنامي، الذي يُشرِّف بلادنا بزيارته، قال في حديث خاص: إن الأجانب الموفدين أنفسَهم ملزمون، في بلده، بالتكلم باللغة المحلية.

ونحن في الجزائر لسنا بعد بمثل هذا التشدد؛ ولكن على الأقل، ليُقدِّمْ موظفونا بذاتهم المثل على ذلك.

صحيح أن مشوهي التعريب ليسوا حديثي العهد؛ فمن الممكن أن نردهم إلى أمد بعيد، حتى في الدول ذات الثقافة العربية؛ مثل مصر، ففي بداية هذا القرن، امتدح مفكر بارز من الطائفة القبطية، استعمال اللغة المصرية في الأدب، وكذلك في بلدنا، هؤلاء المُشَوَّهُون ليسوا حديثي العهد أيضًا. بل لقد سار الصراع من أجل التعريب على قدم المساواة مع عداء مجنون للعربية، ومع رغبة ملحة لمحوها.

وبالطبع، بلغت ذروتها تحت الحكم!!

ولْنُعطِ فكرة عن ذلك، ننشر هنا المقال الذي خصصناه لهذا الموضوع، ونشرناه في مجلة.. في العدد السادس من حزيران سنة 1948م. «لقد افتتحت الجمعية العامة – في جلستها السابعة – نقاشًا حول جدوى اللغة العربية في داخلها».

وقد اكتسب هذا النقاش منحًى قانونيًّا، وآخر ثقافيًّا (تكلم عنهما) السيد (جو – بريسونيار) ببلاغة بسيطة ودقيقة، ولا نحاول هنا أن نتناول هذه الحجج القانونية، التي دعم بها الخطيب قضيته، فهذه أمور نترك

للبرلمانيين والموفدين أمر تقدير أهميتها.

والعكس، فإن السمة الثقافية لهذه القضية، تَهُمُّ كل مفكر، يَعُدُّ اللغة وسيلة أساسية لتطوير (الفكر الشعبي) إلا أن الفكر العربي وأداة تعبيره – أي اللغة العربية – لا يقترنان اقترانًا لا رجوع عنه بشكل معين من أشكال الحياة، بل إنهما يتكيفان – أو يجب أن يتكيفا – مع كل مظاهر الحياة، وخصوصًا في وسط الجمعيات.

الحقيقية أنه توجد تقنية برلمانية، ولكن هذا التأكيد الذي لا يمكن إنكار حسن النية فيه، يضع نوعًا من الحد العشوائي لرسالة اللغة العربية، ولكي نكون عادلين في حكمنا هذا، نَوَدُّ أن نستشهد، بادئ ذي بدء، باعتراض أستاذ موثوق به في هذا المضمار، هو ماسينيون، لقد قال لنا هذا المستشرق البارز مؤخرًا: إن اللغات السامية تمتلك تركيبًا مزدوجًا: الأول هو ما سمح لها بتلقي الكتابات المنزلة، والثاني يتعلق نوعًا ما بما سمح لهذه اللغات، فيما بعد، أن تلحق وأن تقود كل الفكر الإنساني، وعلى الأخص الفكر العلمي، خلال مئات السنين.

الواقع أن السيد (جو – بريسونيار) لم يخطئ ألبتة في تأكيده أن «اللغة الفرنسية تعبر أفضل تعبير عن العلوم الوضعية والفكر الغربي». ولكنه يُشوِّه التاريخ، حين يضيف، بالأسلوب نفسه، وبخصوص الفكرة ذاتها، أنها (وارثة الحضارة اللاتينية اليونانية)، لكنه لو ادَّعَى لهذا الفكر بميراث الثقافة القروسطية (ثقافة القرون الوسطي) – بدءًا بالقديس توما الإكويني – لكان ذلك أشد عدلًا وأصوب.

في الحقيقة، الفكر العربي واللغة العربية، هما اللذان التقطا التراث اليوناني ونقلاه، بعد أن طوراه تطويرًا ملحوظًا، إلى أوربا في القرون

الوسطي.

ولا شك أن السيد (جو - بريسونيار) يسلم بأن التقاط هذا التراث، وتطويره ونقله، يتطلب من اللغة العربية، أن تكون شيئًا يختلف عن (لغة الدين) البحتة، الواقع أن هذه اللغة إذا كانت تستطيع اليوم أن تصبو بوجهها الديني إلى عالمية حقيقية لكونها تعبر عن فكر 500 مليون مسلم، فإنها تستطيع كذلك، أن تعبر عن الفكر التقني لأي حضارة كانت، كما كانت تفعل منذ زمن بعيد في قرطبة وبغداد إبان العصور الذهبية.

أليس شيئًا معبِّرًا أن تكون اللغات الأوربية، وعلى الأخص اللغة الفرنسية، قد أخذت عن اللغة العربية التقنية التي كانت الأساس اللساني لانطلاقة العلوم الحديثة؟

أليس شيئًا معبِّرًا، أن تكون كلمة (chiffres) (الأصل صفر ومعناها العدد) ذاتها (من أصل عربي) في كل اللغات الأوربية؟

مما لا شك فيه أنه يتحتم على العرب، أن يقوموا بالقفزة ذاتها التي حدثت منذ ثلاثة عشر قرنًا؛ لكي يترجموا من جديد الفكر العلمي، وحتى الفكر السياسي.

هذه دعوة لا أعتقد أنه يمكن تجاهلها في رأيي؛ فهي تمنح مسألة التعريب بعدًا تاريخيًّا.

التفكير وردات الفعل[1]

يلاحظ المراقبون المهتمون بالتطور الاقتصادي في العالم من خلال عواطفهم المختلفة التي نُقدِّر وجودها وفقًا لانتماءاتهم الجغرافية والسياسية، يلاحظون أن هذا التطور لم يكن قط ملائمًا للدول المتخلفة، ففي خلال العشرين سنة التي تلت الحرب العالمية الثانية، لم يستطع هذا التطور أن يُبدِّد تخلف تلك البلاد الاقتصادي، أو على الأقل أن يُخفِّف من غُلَوَاء هذا التخلف.

ويبدو، على العكس من ذلك، أنه عمل على زيادة حدة هذا التخلف في تلك الحقبة التي تتطابق، فيما يخص مجمل هذا البلاد، مع وصولها إلى الاستقلال السياسي.

ومن جهة أخرى، لا يبوح هؤلاء المراقبون بكل نتائج هذا التخلف، ولا يرونها، بل إنهم يحرصون على البقاء (موضوعيين) أمام تلك الظاهرة.

ولكن من الأصح أن دوي هذا التخلف يتجاوز الميدان الاقتصادي تجاوزًا بعيدًا فلهذه الظاهرة – على الأخص – نتائج نفسية غير متوقعة، وهي لم تفلت من مراقبٍ متنبِّهٍ لأمور العالم الثالث، وهو (تيبور ماند) (tibor mende)، فقد سجَّل في إحدى دراساته المشهورة التي خصصها للهند ملاحظات مثيرة جدًّا وذاتية، وهي ملاحظات دَوَّنها مباشرة من خلال أحاديثه مع أناس من العامة مثل (بواب الفندق) أو (حامل الحقائب في إحدى المحطات).

(1) "reflexes et reflexions "REVOLUTON AFRICANE. No 251, du 7 au 13 decembre 1967.

لقد عـبَّر لـه هـؤلاء الناس بوضـوح - قـد يكون كبـيرًا أو صغـيرًا - عن نـوع مـن الأسـف لرحيـل المحتـل البريطـاني الـذي برحيلـه ذهب البقشـيش الـذي كانـوا يعتاشـون منه.

هـذا يعنـي - إجمـالًا - أن الحريـة ليسـت مربحة بالنسـبة لهـؤلاء الناس. فهـل هـم خونـة إذن؟ كلَّا، إطلاقًـا، إن أمـور النفـس البشريـة ليسـت بمثـل هـذه البسـاطة، فهذا (البـواب) وهذا (الحـمال) إذا رأيا المحتـل البريطاني يعود إليهـم فإنهـم سـيحملون السـلاح ضـده، أو أنَّهـم سيُشـهِرون بوجهه سـلاح المقاومـة السـلبية كـما في أيـام (غاندي).

هنـا تكمـن الحقيقـة المرعبـة، وحسـب، إن الحريـة عـبءٌ ثقيـل عـلى الشـعوب التـي لم تُحضِّرْهـا نخبتهـا لتحمـل مسـؤوليات اسـتقلالها.

كان مـن السـهل جـدًّا أن نشـتم الاسـتعمار أثنـاء فـترة مـا قبـل الثـورة، لقـد اتَّبعْنـا هـذه الطريـق دون أن نتنـاول - ودون أن نطرح - أي مشـكلة من مشـاكل الاسـتقلال قبـل اسـتحقاقها المرعـب، هذا الاسـتحقاق الـذي يزرع اليـوم القلـق في نفـوس عامة الشـعب، ويـزرع الركـود الاقتصـادي، وأحيانًا الفـوضى السياسـية في معظـم بلـدان العـالم الثالث.

مـا هـو الحـل إذن في هـذه الحالـة؟ للجـواب عـلى هـذا السـؤال، عـاد بعضهـم بكل بسـاطة إلى ركـوب حماره العتيق، وصرخ: فليسـقط الاسـتعمار، ولكـي يكـون أشـد حداثـة أخـذ يـصرخ: فليسـقط الاسـتعمار الجديد.

ومـما يزيـد الطـين بلـة أن الحـوادث المأسـاوية التـي تحـدث في فيتنـام، تعطيهـم الحجـة فيـما يقولـون.

ونحـن نتسـاءل رغـم ذلـك عن المـدى الـذي تذهـب فيه حجـة ظروف حـرب فيتنام؟

إنها لن تذهب بعيدًا كما هو واضح..

ثم ماذا بعد ذلك الاستقلال هنا، ومشاكله هنا أيضًا، وهي تُلِحُّ أكثر من أي وقت مضى، إن الآلام التي تثقل كاهل شعوب العالم، باتت أشد ما يمكن من الإقلاق، يجب وضع حد لكل ذلك، وأن نجد هذا الحد بهدوء، ودون ضوضاء.

لقد كدنا نجده في مؤتمر (باندونج) الذي ألقى عليه (جان روس) لقب (مؤتمر الشرف)، لما كان فيه من تنظيم عالٍ، ولأننا لم نكتفِ فيه بالصراخ والتعبير بالحركات الكثيرة وحسب، لقد كان ذلك انتصارًا معنويًّا للشعوب الإفريقية والآسيوية: إنه انتصار التفكير على ردات الفعل.

كان ذلك مهمًّا جدًّا، ولكنه لم يكن كافيًا، بل كان يجب أن ينبثق من هذا التفكير سلسلة تغييرات حقيقية وثورية، في العلاقات بين البلدان المعنية، وفي العلاقات المشتركة مع عالم الاستعمار والتطور، أو عالم الاستعمار الجديد، كما تشاء، وللأسف ظل مؤتمر (باندونج) دون نتيجة، فقد اكْتُفِيَ - وبكل بساطة - بتكرار الصيغة: فليسقط الاستعمار، والاستعمار الجديد، والإمبريالية..

وباشر شارحون ملهمون - نعرف هويتهم - بالعمل على دراسة كلمة (الإمبريالية)، وكان في نظرهم إمبرياليتان: إمبريالية (اليمين) وإمبريالية (اليسار).

قد يكون المصطلح السياسي في الدول المتخلفة رَبِحَ مفردة جديدة، ولكن تخلف تلك الدول ربح كذلك قليلًا، ماذا أقول؟ لقد تفاقم وتقدم خطوات وخطوات.

وحتى (تلاميذهم) الأطباء والمهندسون والأساتذة إلخ.. الذين دُرِّبُوا على نفقتهم، رحلوا وسلكوا الطريق ذاتها التي تسلكها المواد الأولية

(بـترول – مطـاط – إلـخ)، واسـتقروا في البـلاد المتقدمة.

ولكـي نفهـم خطـورة تلـك المشـكلة، يترتـب علينـا أن نقـرأ حـول هذا الموضـوع مـن منظمـة الأمـم المتحـدة، فعـالم الاجتـماع الإيـراني الـذي أُوكِل إليـه وضـع هـذا التقريـر، يبـيِّن كيـف أن الـدول الصناعيـة تضخ بـكل ما في الكلمـة مـن معنـى أدمغة العـالم الثالـث، كما تفعـل بالنسـبة لموادهـا الأولية. هنـاك رقـم لم يُذكَـر في التقريـر، ولكنه يعطي فكـرة عن خطورة هـذا الوضع: هنـاك أطبـاء جزائريـون يعملـون في فرنسـا (قرابـة 400) عددهـم أكـبر مـن عـدد الأطبـاء العاملـين في الجزائـر، هـذا موجـب للعبرة!

ولكـن في بلد مصـاب بمثل هذا النـزف، لا نفكر حتى في طرح المشـكلة، وهذا أيضـا موجب للعبرة!

هـذا حـدث عنيـف كان الأجـدر بـه أن يثـير جوابًـا ملائـمًا؛ أي عمليـة تفكـير، لكـن يثـير ردات فعـل: فليسـقط الاسـتعمار، وليسـقط الاسـتعمار الجديـد، ولتسـقط الإمبرياليـة، إمبريالية (اليمـين) وإمبريالية (اليسـار) طبعًا.

هـا..! إلى الأمـام يـا حمـاري! ولكـن ظهر الحمار قـد وهـن، ولا يمكن أن نـمارس فوقـه كل هـذه البهلوانيـات المعتـادة، بـل يجـب أن نجـد حمـارًا يحمل خطايـا تخلـف العـالم الثالث.

لقـد فكرنـا بذلـك في جـو الوجـوم الـذي أصـاب العـالم العـربي غـداة الخامـس مـن حزيـران المـاضي. لم نـصرخ ضـد العـدوان وحسـب.. عـدوان إسرائيـل وعـدوان صديقهـا (جونسـون).

لقد حدث أمر جديد في تلك المناسبة، لقد صرخنا ضد الخيانة.

ولكـن إلى أي خائنـين كان يشـير هذا الشـعار الجديد؟ أيشـير إلينا نحن – أنفسـنا – حين نخـون واجباتنا؛ وندق بأيدينا إسـفينا في نظام دفاعنا السـياسي

أو الثقافي أو الاقتصادي ضد الإمبريالية؟ كلا إنه يشير إلى كل الناس: على يميننا وعلى يسارنا، أمامنا ووراءنا.

لابد أن (هنيبعل الصغير) (موشيه دايان) قد ابتسم من الرضى يوم سمع شعارنا ضد موسكو، ولحسن الحظ أن القادة العرب، على الأقل القادة في القاهرة، وفي الجزائر، وضعوا حدًّا لتلك الأشياء.

وعلى أي حال، لم يكن لكل هذا الأمر أهمية في جو الرعب، في جو الجنون الجماعي، كل الشعوب تَتَفَوَّه بالحماقات في لحظة الأزمات، وحتى رجال الدولة كذلك، كما فعل (بول رينو) (paul REynaud) في إحدى أمسيات حزيران من العام 1940م.

ليس هناك – إذن – من داعٍ لأن نلوم أنفسنا إذا قلنا بعض الحماقات في لحظات الرعب، فهذا إنساني.

ولكن لابد من التمييز، فالحماقة التي (تُقَال) تذهب مع الريح، أما الحماقة التي (تُكتَب) فهي لا تمرُّ سريعًا، بل من الممكن أن تتحد مع التفكير، وأن تصبح مُسَلَّمَة، فتعرقل لاحقًا التفكير والعمل في آن معًا. ويمكن فيما بعد أن تتخذ صلابة التعقيد في الأطروحات الجديدة لبعض الشارحين، وهذا ما بدأ يحدث في هذه اللحظة في بعض الدراسات التي تتم حول المشاكل الاقتصادية للعالم الثالث.

إن التخلف لا يتعلق بالإنسان المتخلف فحسب، ولا ببعض الدول المتطورة التي تضخ أدمغته القليلة كما تضخ مواده الأولية الثمينة.

لقد اكتسب التخلف بعدًا جديدًا في بعض الدراسات التي تتضمن أيضا (بكين) و (موسكو) هذا هو (الحمار) الجديد الذي نوشك أن نمتطيه في حال اتباعنا تفسيرات هؤلاء الاقتصاديين العابرين.

إننا نجد نموذجًا من هذا الشرح الجديد في مجلة متخصصة بمشاكل العالم الثالث، وهي تصدر في (روما) تحت عنوان (القارات الثلاث)، فهذه المجلة تُخصِّص في عددها الأخير (العدد الثالث) دراسة شاملة لمشكلة المواد الأولية، والمقصود هنا (معركة المواد الأولية).

يبدأ كاتب المقال بملاحظة عامة تُبَيِّن كيف أن العالم الثالث لم يتلقَّ أي مساعدة من دول المعسكر الشرقي، الذي أغدق عليه الكلمات المعسولة.

ثم تتحدَّد التهمة، يضيف صاحب المقال: «ولكن يليق أن نُنَبِّه إلى أن الاتحاد السوفييتي والديموقراطيات الشعبية والصين يعملون بصفة عامة وكأنهم مشترون تقليديون تمامًا».

ولكن هذا الانتقاد مجَّد ذاته أليس هو تقليدًا كذلك؟ من الواضح أنه يطرح المشكلة بأسلوب تقليدي، وذلك حين يضع كامل تبعات تقهقر عناصر التبادل في أسواق المواد الأولية، على التفكير الشيطاني (للمستغلِّين)، وذلك دون أن يأخذ بالاعتبار ردات الفعل الفوضوية لِلَّذِين يخضعون للاستغلال.

أيضًا، هذه الطريقة في رؤية المشكلة تقليدية، كذلك: إنها حمار عتيق، ذلك لأن ما يُنظِّمُ التبادل في الأسواق ليس روابط الصداقة، بل الروابط الاقتصادية، فالعواطف النبيلة والنوايا الحسنة لا تستطيع شيئًا، حيال القانون الصارم للعرض والطلب.

وإذا كانت بكين وموسكو في إطار اقتصادي وسياسي معين، تستفيدان من هذا القانون في الأسواق كما تستفيد سائر دول المعسكر الصناعي، فذلك ربح يعود إلى الروابط العامة التي ترتبطان بها نفسهما من خلال اقتصاد العرض والطلب.

ذلك أن تلك الدولة ملزمة في الأسواق بتأمين وجود مزدوج، من حيث هي بلاد تستورد المواد الأولية مثل أمريكا، ومن حيث هي بلاد تُصدِّرُ هذه المواد الأولية مُحوَّلة مثل ألمانيا إذا أردت، ويستقر إذن ميزانهم الاقتصادي لعلاقاتهم مع العالم الثالث من جهة ومع العالم المتطور من جهة أخرى، لدرجة أن كل تغيير أحادي الجانب، يطرأ من جهتهم على علاقاتهم مع العالم الثالث، يُخِّل بالتوازن، ويسيء إلى علاقاتهم التنافسية بعضهم مع البعض الآخر.

فتحديدهم لأسعار المواد الأولية لا يمكن إلا أن يُنظِّم بتلك المقاييس التقليدية، تمامًا كتحديد المواد الصناعية، ولا يمكن إذن أن يأتي تغيير (للعلاقات التقليدية) من قرار حر تتخذه موسكو أو بكين.

وبكلمة أخرى، لا يمكن أن يأتي التغيير من (الطلب) الذي ليس له أي فائدة في ذلك التغيير، والذي ليس له - في آخر الأمر - أي سلطة على التغيير في السياق الاقتصادي والسياسي الحالي، لا يمكن للتغيير إلا أن يأتي من (العرض) أولًا؛ لأن من صالحه أن تتغير تلك العلاقات التقليدية، ولأنه يملك المقدرة على فعل هذا التغيير بواسطة تنظيم ملائم لإنتاج المواد الأولية وطرحها في الأسواق.

ليس المقصود أن نذهب إلى (نيودلهي) مُزوَّدين بأمنيات حارة، بل بقرارات ناضجة فكريًّا، وجاهزة للتنفيذ داخل حدود الدول المعنية بالأمر؛ وذلك لكي نحصل في الخارج على أقصى مستوى من التأثير في الأسواق.

دون تفاؤل ودون تشاؤم، أقول: إن ذلك لا يحتمل ألبتة أن يُنفِّذَ في الظروف الراهنة؛ ففي الجزائر، وضع (الـــــ 77) أقدامهم على مَدْرَج مطار آخر.

تأملات على قبر دينيه في بو سعادة [1]

كان ذلك على قبر «دينيه»، البارحة، حينما عادت بي تلك الفكرة القاتمة إلى الذاكرة. لقد وجدتها، إلى ربع قرن مضي، على شفاه مرأة عجوز من تبسة، كانت تشعر بثقل أيامها الموحشة.

فقد ضُربتْ عائلتها بغير ما شفقة، لأسباب لم تبُحْ بها تلك العجوز؛ لعله العنفوان أو التجمل، كل ما عرفته أنه لم يكن من الممكن الحديث عن نجدتها من تلك التعاسة الإنسانية.

حقا فإنه حينما يقرر الاستعمار النيل من شخص ما، فإنه يتركه خيالًا ووهمًا دون حياة، والويل حينئذ لمن يأتي إليه مُسعِفًا أو مُخفِّفًا من بلوائه، الويل لمن يمد إليه يد إخاء تُخفِّف من غُلواء بؤسه.

في بداية هذا القرن، عاش الشعب الجزائري أحلك أيامه، فبعد الانتفاضات الأخيرة لمقاومته البطولية، لم يعد وجوده سوى وهمٍ وخيال، يأخذ طورًا شكل الخضوع الكامل (الحتمية كما سيقول ممتهنوه ومذلوه)، وطورًا آخر يأخذ شكل الإغراق في الأسطورة.

لكن إيمانه قد ساعده على تجاوز ضعفه، ومعاداة الأيام، لا بل زانه بشيءٍ من الأصالة، وشعاع ساحر غامض يلفت الانتباه، وقد يُغري تعاطف الحس الرهيف، إذا جاء من بلاد بعيدة.

هكذا وقعت دي كاسترز في سحر من الأغواط.

وإيزابيل إيبرهارت، سوف تعيش تحت تأثيره في تلك المغامرة المجنونة،

(1) "Reflexions ole Bou saaaola ,"Revolution africaine, no 269 semaine du 11 au 17 avril.1968

التي ستنتهي بالمأساة في عين الصفرا، ثم ذلك الضابط الشاب الشهير، والذي سيصبح الأب فوكولد، إذ تتلقاه عمته العجوز بحبور، وتقيم حفلة استقبال على شرف عودته من الجزائر، لكنه يطلق أمامها تنهيدة:

آه! يا عمتي لِمَ أُولَد مسلمًا؟

فالشعب الجَزائري المُحطَّم، المُعرَّى، المسلوب، الأمي، المستذل، يلهم مع ذلك تلكم الأرواح المختارة، اتجاهات سامية فيها المخاطر كلها.

ففي ذلك العصر عاش الشعب الجزائري أيامه الأكثر ظلمة، بلغت مداها في هوان لا إنسانية فيه ولا رحمة، في ذلك العصر اكتشف الرسام الشاب إتيين دينيه الجزائر، لكن فنه لم يكن بعد قد سلك رسالة ما.

لقد حالفه الحظ بدون شك؛ إذ هبط (بو سعادة)، ويمكن لنا أن نتصور اتصاله الأول بتلك الطبيعة، حيث نظرته كرسام، قد أخذت على غرة بطبيعة تألفها، إنها الخضرة الداكنة والتربة الصلصالية الحية.

فحينما تسلق -لأول مرة- ذلك الطريق المتعرج، الذي يقود إلى الجانب الآخر من الوادي، أي المكان الذي يوجد فيه اليوم قبره، فقد استشعر نشيد الألوان يتسرب إلى روح الفنان في نفسه، وفي تلك اللحظة من النشوة، فإن نظرته اكتشفت وراء ذلك الأفق الأكثر اتساعًا.

فهنالك - أولًا - مُنبسَط الوادي، حيث برك الماء التي تمتلئ إثر كل شتاء، وتنثر هنا وهناك بقعًا خضراء على صفحة صهباء مليئة بالحصى، فإذا سرح النظر إلى أعلى قليلًا، فهنالك إلى الأمام يبرز إكليل داكن متدرج من شجر النخيل، وفي القمة من المنظر ذلك الخط الأصهب من بيوت الطوب لبلدة بوسعادة القديمة، وفي فرجة من جنوبي الواحة هنالك المدى الذي أمسك بالعديد من الأرواح؛ كروح إيزابيل إيبرهارت.

إتيين دينيه لم يكن - فحسب - الرسام الذي استيقظت هنالك رسالته، التي أخذت به إلى مداها، وهو لم يكن - فحسب - الشاعر الذي استسلم لسحر ذلك النداء الخفي، لقد كان ذلك كله، بل أكثر، ففي الواحة هنالك حياة إنسانية، سوف يكتشفها وهو يجتاز طرقاتها الضيقة، هذه الحياة لها ألوانها الخاصة بها، والتي تتحدث إلى الشاعر وإلى الرسام.

فلوحاته.. كلوحة (النساء الذاهبات إلى الزيارة)، أو لوحة (التماس هلال رمضان) هي قمة الإبداع الفريد في التعبير عن الأشكال والحضور الإنساني.

لقد كان دينيه - كما أعتقد - الريشة التي أعطت لتلك الأشكال اللهجة الأكثر تأثيرًا، واسمه سوف يبقى في ذلك الرسام الأوفى بحياة الجنوب، لكن حياته الإنسانية سجلت جانبًا مُؤثِّرًا لا يمكن لريشة أن ترسمها.

لقد كان في هذه الحياة جوانب خاصة مليئة بالألم، تترجم مأساة ذلك العصر؛ فخلف الأشكال والألوان هنالك الحقيقة المرة للعصر الاستعماري، وقد أفاضت في شعور إتيين دينيه.

هذه الحقيقة اكتست بنظره وجهين: بؤسًا لا مُسمَّي له، وسكينة لا حدود لها. وكلاهما استأثرا به فجعلا من نفسه مؤمنًا ومكافحًا، وتنهيدة الضابط الذي أضحى الأب فوكولد؛ ها هي على شفتي إتيين دينيه شهادة: إنني مسلم.

وهكذا سوف نرى إتيين دينيه، يعلن على الملأ إسلامه في يوم من نحو عام 1929م، أمام جمع من المسلمين، ومن وجوه الإصلاح المرموقة. وهو سوف يسمي نفسه منذ ذلك الحين نصر الدين دينيه.. لقد كان ذلك انقطاعًا عن وسطه وعن عائلته، هذا الانقطاع الذي تم فعلًا قبل ذلك لدى دينيه بروح المكافح.

والبقعة التي تملكها واختارها بذوق الفنان، ليبني عليها مُستقَرَّه الأرضي - والتي أضحت فيما بعد مستقره الأخير - لم تُحترَم لا من الناس

ولا من الطبيعة، لكن الزائر الذي يأتي ليزور قبر إتيين دينيه يرى أيضًا – وهو يجتاز الوادي – تلك الشرفة من ألواح الخشب التي تطل على مُنبسَطِه المليء بالحصى، فالرسام شاء أن يبني بغير شك منتجعًا يأوي إليه، في اللحظات التي تكون فيها العزلة حاجة كل مبدع.

غير أني لا أتصور أن الفنان المبدع قد جاء إلى هذه الشرفة؛ ليتأمل سحر الطبيعة فحسب، ويباغت عفوية حاملات الماء اللواتي يأتين ليملأن الجرار والقرب، في ذلك الزمن الذي لم تكن (بو سعادة) قد جرت إليها المياه.

فنصر الدين كان كامنًا في أعماق إتيين دينيه، وهو قد شعر بقوة بالرابطة التي تربطه كإنسان، بذلك المجتمع الذي رسم بعظمة الفنان كل ما هو جذاب فيه، وبادره بلمسة غالبًا ما تكون مؤثرة.

لقد شعر بقوة مأساة ذلك الشعب، وها هو يشارك بإدراك منه في قدره المأساوي؛ فبؤس الشعب وسكينته قد كسبا دينيه لجانب قضيته، وها هما يكشفان اللعبة التي تُحاك في الظلام.

فالإيمان يمنح الشعب قوة احتمال ذلك البؤس بإباء، مُرسِيًا على قسمات الوجوه، وفي سائر الأجواء، مزيدًا من السكينة والهدوء.

لقد شعر دينيه و– هو رجل الفن؛ أي رجل الإلهام والبصيرة – أن المؤامرة تحاك بالتحديد دائمًا ضد القوة المسعفة؛ والتي تحول دون سقوط هذا الشعب في ظلمة اليأس.

وقد بدا له أن الاستعمار لديه هو أيضًا ذلك الحدس، الذي يتصل بواقع هذا الشعب، ولذا فسائر مخططاته الموجهة تصبُّ دائمًا ضد مفصل صمود الروح الجزائرية؛ الإسلام. فإذا ما سقط هذا المفصل فلن يكون هنالك ما يعوق عمل الاستعمار، وهكذا يصبح الشعب لا قبل له بدفع مؤشرات الاستعمار أو البْرْء منها.

لقد كان ذلك كله يتخايل في شعور إتيين دينيه، وهو يطل من شرفته التي أُهمِلَت اليوم، وتُرِكت لعبث الزمن، وللرياح الحادة، التي أتلفت خشب تلك الشرفة.

وربما كانت هي تلك حالة النفس، التي جعلته يترك لفترة الريشة ليحمل القلم، في تلك الحقبة كان الدكتور كرونيه - نائب (جورا) في حينه - ينزل في الاستراحة بين جلستين من جلسات قصر بوربون؛ ليتوضأ ويصلي على رصيف السين، تحت أنظار المارة المتسكعين الذاهلين، وهم يجتازون جسر ألكسندر، بينما كريستيان دوشرفيل الذي أعلن إسلامه هو الآخر باسم عبد الحق، يُؤلِّف كتابه: نابليون والإسلام، الذي إليه سوف يسطر إتيين دينيه إهداء كتابه (الشرق من منظار الغرب)، وفي تصدير هذا الكتاب دافع إتيين دينيه بتواضع عن كونه مدققًا، ولقد كان هذا الكتاب في الواقع نتاج عالم باحث اتخذ موقفًا - أو كان كما يُقال اليوم - ملتزمًا، وهو التزام فيه مجازفة الملتزم، واندفاع تهور.

لقد التزم بالضبط ضد الفرنسيين من المستشرقين، حين رفع القناع بلا رحمة عن مخططاتهم وخداعهم ضد الإسلام، لقد ساوى قلمه ريشته، وحين ألف كتابه (محمد نبي الإسلام) أضحى قلمه في بعض صفحاته ريشته الأشد سحرًا.

فالفنان مثله وحده الذي يمكنه في الواقع أن يكتب صفحة غزوة تبوك؛ فالدفاع عن الإسلام، وإبراز قيمته بالريشة أو بالقلم، كانا إفشالًا لمناورات الاستعمار، التي أرادت أن تستغل وتستنفد سائر المصادر الروحية للبلاد الإسلامية المستعمرة؛ كالجزائر ومُرَّاكش وتونس؛ لتصبح شعوبها أكثر استجابة لعمله التفتيتي.

إتيـين دينيـه قـد واجـه ذلك كلـه بريشـته وبقلمـه، فهـو – إذن – قد فعل مـا لـن يغفره له الاسـتعمار أبدًا؛ فحـوالي عـام 1931م زرت مُتحَـف اللوفر، وكنـت أنتظـر أن أجـد فيـه بعضًـا مـن لوحات ذلـك الرسـام الكبـيرة، الذي كان قـد تُـوفِّى حديثًا، وأشـد مـا كانت خيبتـي أنني لم أجد شـيئًا منهـا، وحينما عـبَّرتُ عـن هـذه الخيبـة لطالـب في الفنـون الجميلـة، كان قـد تطـوع بلطـف ليرشـدني، فوجئـت بجوابه:

لحسـن الحـظ أنـه لا يوجـد مثـل تلـك القباحـات هنـا، لسـت أدري إذا كانـت الأمـور تغـيرت منـذ ذلـك الزمـن في متحـف اللوفـر، ولكنـي أفهـم اليـوم بصـورة أفضـل تلـك الأمـور.

ففكـرة العجوز التِّبسـيَّة قـد راودت فكـري البارحة أمام قـبر إتيين دينيه؛ وهـي قـد فسرت لي ذلـك كله، ثـم إن حيـاة وأعـمال الرسـام الكبـير فسرت بالمقابـل تلـك الفكـرة المؤلمـة، حتى إنـه حينما حمـل المركـب رفاته من فرنسـا، حيـث تُـوفِّى، فـإن الإدارة قـد أخـذت كافـة الاحتياطـات بـين المرفـأ ومحطـة الجزائـر، فقـد نُقِـل إلى مثـواه الأخير في (بوسـعادة) خلسـة، بمعـزل عن علم الجماهـير عـبر جلفـا، إذا لم تَخُنِّـي الذاكرة.

نعـم كـما قالـت العجـوز التبسـية «الويـل لمـن ينجدنـا؛ لأننـا سـنكون بلـواه»، لقـد كان عـلى إتيـين دينيـه أن يدفـع هـذه الضريبـة، كل ذلـك أفهمه اليـوم.. لكـن الذي لم أسـتطع فهمـه البارحة، حالـة الإهمال والتلـف في تلك الأماكـن، التـي تأمَّـل دينيـه عبرهـا في عملـه الفنـي ونضالـه الملتزم.

إننـي لا أجـرؤ عـلى التصريـح بـكل مـا أفكـر بـه في هـذا الموضـوع؛ إنما أعلـم أنـه في العمـق هنالـك شيء مـن الـبراءة، ومن عـدم الوعي مـن جانبنا، ولكننـي مضطـر أن أسـجل بأن تلك الـبراءة وافتقـاد الوعي، يبـدوان وكأنهما اسـتمرار لموقف الاسـتعمار مـن دينيه.

لن أشير هنا إلى التفاصيل التافهة؛ فأنا لا أدري مثلًا أي يد مدنسة وضعت على صورة الرسام الصغير المعلقة على حائط المقبرة، تحت اسمه المكتوب بخط عربي لائق، اسمه بخط لاتيني مليء بالخطأ، وكل حرف فيه يرتجف، لا ريب كان ذلك مجرد تصرف صبياني يمكن تحمله من أمي، كما لن أتحدث عن نافذة الضريح، الذي سدته يد بربرية بتلك الأحجار الصغيرة التي جمعت من حوله دون أن تكلف نفسها عناء طلائها من الداخل، لكن الذي يصدمنا أكثر إنما هو تصرفات أخرى، تشير إلى روح الجشع والاستغلال والاستثمار.

فمنتجع دينيه لم يُترَك لعوامل الطبيعة فحسب، بل قُسِّمَ وبِيع مُفرَّقًا، ومن اقتناه حوله إلى مسكن على طراز مدينة الصفائح؛ فبابه استُبدِل بلوح من الصفيح المموَّج، يتسرب من خلاله ضوء النهار فتلمح الممر الذي كان الرسام يجتازه؛ ليدلف إلى حديقته، ويأتي منتجعه فوق الوادي، والمنتجع هذا، قد أضحى هو نفسه مع الحديقة ملك شخص آخر.

لم يبَق لدينيه سوى ضريحه، لقد عُزِلَ عن بقية آثاره، بحائط غير مورق، بل وبأية حالة! هكذا جُرِّد في حياته من الكثير، وجرد في مماته من التقدير الواجب لرفاقه، لقد جرد ميتًا من الإطار الجميل، الذي يجب أن يُقبَر فيه ذلك الفنان الشغوف بالجمال.

لسنا في حاجة لأن نتساءل: أين هي وثائقه التي لا تُقدَّر؟ كل ما نبغيه على الأقل أن نعيد إليه ما يمكن أن يُعاد إليه، وهذا يقع على عاتق الدولة الجزائرية، على عاتق أجهزة فنوننا الجميلة، وأنا أعلم أن مدير ذلك الجهاز يحترم الأشياء التي لا تُقَدَّر بقيمتها المادية، إنما تقدر بقيمتها المعنوية التاريخية.

ترجمة ع.م

مهمة النخبة الإفريقية[1]

على إثر انتهاء (القمة العربية) المُصغَّرة التي عقدت مؤخرًا في القاهرة، أجرى مراسل الـــــ (RTA) مقابلة مع الرئيس الأزهري حول موقف الدول الإفريقية في (هيئة الأمم المتحدة) أثناء مناقشة الاعتداء الإسرائيلي، فشرح رئيس الدولة السوداني كيف أن هذا الموقف، مهما كان مخيبًا لآمال العرب، إنما كان وليد تأثيرات الإمبريالية وإلحاحها ووعودها وضغوطاتها لدى تلك الدول.

ويأتي هذا الجواب في حينه ليُنوِّر - كما أتمنى - قارئًا من الجمهورية العربية كتب لنا تحت اسم (س . ه) ليبلغنا مرارته من موقف المنظمة الإفريقية.

رغم ذلك، وبما أن هذا القارئ الصديق يخاطبني باسمي شخصيًّا حول نقطة دقيقة، وبما أنه فوق ذلك يُريحُنا بطلبه أن نكون (صريحين) فيما بيننا، فإن الحوار سيكون - ولا شك - ممتعًا جدًّا.

ولكنني أميل - بادئ الأمر - إلى طرح سؤال عليه، قبل أن أجيب على سؤاله.

فالحلم مَزِيَّة الشباب - ولا شك - كما هو مزية الشعراء أيضًا.

ولكن الإمبريالية سَلَبَتِ العالم سحره وشاعريته، لقد سلبتنا بذلك حقنا في مزايا الشباب.

(1) "la mission des elites africaines ,"Revolution a fricaine, no 234, semaine du 7 au 13 acut 1967.

وعليه، من يسمح لإنسانٍ من العالم الثالث أن يحلم (بحلم الوحدة الإفريقية) كما يقول صديقنا القارئ؟ إن كل وعينا ضروري في هذا الصراع المرير المفروض علينا، ولكنه ليس كافيًا على الدوام.

يجب علينا أن نستيقظ ونتساءل إذا كان حلمنا ذاته فخًّا؟ كذلك يجب أن نتساءل ما إذا كانت الإمبريالية تدفعنا إلى الحلم تمامًا، لكي تَلفِت انتباهنا عن بعض الوقائع الملموسة التي تُعيق حساباتها؟

يخطر ببالي على وجه التحديد ذلك الواقع الإفريقي – الآسيوي الذي تجسد في (باندونج) سنة 1955م، وذلك الرعب الذي زرعه في المعسكر الإمبريالي؛ فالإمبريالية كانت تعرف حقًّا ما كان يمثله هذا الواقع على التمام.

كانت ترى فيه – على المدى القريب – القوة الهائلة لكل الدول النامية (بكل ما تملك من مقدرات اقتصادية) منظمة في نوع من النقابة ذات البعد السياسي والاجتماعي والأخلاقي في سبيل التعبير عن حقوق البروليتاريا الآسيوية – الإفريقية، وللمطالبة بها، وهي بروليتاريا تتكوَّن من كامل شعوب تلك البلدان، أي من أكثر من مليار نسمة، أمَّا على المدى البعيد، فإنها ترى أكثر من ذلك.

هناك مراقب غربي لا نشك في تجرُّدِه يُقيِّم هذه الواقعة بقوله: «... إن مؤتمر باندونج لم يُؤدِّ إلى أي نتيجة مباشرة، ولكنه كان حافزًا للقُوَى التي حددت مجرى التاريخ وصنعت العالم الذي نعيش فيه اليوم».

والواقع أنه من المنظور التاريخي، وإذا وضعنا أنفسنا في السنة 2000 كما فعل هذا المراقب الغربي، فإن هذا الحكم غاية في الدقة.

ولكن، هل ما يزال صالحًا حتى يومنا هذا؟ هيهات! لقد عفَّ الزمن

عـلى كل الأحـكام التـي أطلقـت عـلى مسـتقبل مؤتمـر باندونـج، عـلى المدى القريـب وعلى المـدى البعيـد، لماذا؟

لكـي نجـاري العـصر، لابـد مـن الإجابـة بشـكل آليٍّ: إن ذلك يعـود إلى الإمبرياليـة، وعـلى كل حـال، يبقى الجـواب صحيحًا، ولكن يجـب رغم ذلك ألا نخضـع لآليـة الجـواب: بل يجـب أن نفكر.

لا يجـب أن نتهـم، بـل أن نفهـم، لم تسـتطع الإمبرياليـة بضربـةٍ مـن عصا سـحرية أن تحطـم مشـاريعنا المبـشرة لنـا بالخـير أحيانًـا، وبالتـالي الخطـرة لها، إنهـا لا تفعـل أكثـر من اسـتغلال مواطـن ضعفنـا، إمـا في تصميم مشـاريعها وإمـا في تنفيذها.

إن الظـروف الاسـتثنائية للحرب البـاردة هي التي أنجبـت مشروع مؤتمر باندونـج، ويجـب أن نعـترف بكل تواضع أننا لم نفعل شـيئًا كثيرًا لنسـاعد هذا المولـود الجديـد عـلى النمو، هذا في البـدء، ثم إنـه يترتب علينا الاعـتراف بأننا حتـى أعقنا تطـوره بالمبادرات الفجائيـة والإجراءات التـي لا طائل تحتها.

في المؤتمـر الإفريقـي - الآسـيوي الثـاني الـذي عقـد في القاهـرة سـنة 1957م، رأينـا مثـلًا (طـه حسـين) المُؤثِّـر يتكلـم عـن الثقافـة الرائعـة لبلـده خـلال آلاف السـنين؛ فلـو أن هـذا حدث عـلى منبر كليـة جامعية أمام حشـد مـن الطـلاب، لـكان الموضـوع نفسـيًّا حقًّـا، ولكـن مـن عـلى منبر الشـعوب الإفريقيـة الآسـيوية؟ ألم يكـن مـن الأفضـل، لـو تكلـم عـن مـشروع ثقافـة إفريقيـة آسـيوية يُوضَـع فـورًا قيد التنفيـذ؛ لكي يقـدم البناء المتـين الضروري لجمـع شـمل القـوى الهائلـة، المشـتتة نوعًـا مـا، والمجتمعـة في باندونج؟

مـن الواضـح أن هـذا التناقـض كان فـوق ذلـك مشـتركًا بـين الجميـع. اللهـم إلا عنـد الوفـد السـوفييتي، الـذي قام بـشيءٍ أشـد فعالية، حـين تكلم

عـن قواعـد اقتصـاد إفريقي آسـيوي.

أمـا بالنسـبة لـــــ (GPRA)، فإنهـا لم تجـد أفضـل مـن أن تعتـلي منـبر الشـعوب الإفريقيـة الآسـيوية لا لتسـمع صـوت الثـورة الجزائريـة، بـل لتستشـهد بأقـوال الصحافة التقدمية مـن أولها إلى آخرها، من (الإكسـبريس) إلى (الأوبسرفاتـور).

هـذا ولا نتكلـم هنا عـن الكُتَّاب المزيفـين الذيـن انتدبتهم الـــ (Gpra) ليمثلـوا الجزائـر في المؤتمر الأول للكتاب الإفريقيين الآسـيويين الـذي عُقِدَ في طشقند في سـبتمبر - أيلول سـنة 1958م.

لقـد أعطى (بومارشـيه) وصفًا دقيقًا لمثـل هذا التناقـض في عصره بقوله: «كنـا بحاجـة لمحاسـب، فاتخذنـا راقصًـا». وهـذا على مـا أعتقـد ينطبق بعض الـشيء علي العديد مـن دول العـالم الثالث.

باختصـار، هـذا هـو عملنـا مـن الداخل، ويجـب الاعـتراف بأننـا بذلك نجعـل مهمة الإمبريالية سـهلة جدًّا من الخـارج، عندما نتكلم عـن (العارضة pouter) فإننـا نفكـر بالضبـط بهـذا الأمـر، وبالكثير مما يشـابهه، إن الشـعوب الإفريقيـة أو الآسـيوية، إلا ما نـدر منها، لا تحتاج لأن نضـع عارضة في عينها: فهـذه الأخيرة موجـودة فيها بشـكل طبيعي.

كان لمؤتمـر الوحـدة الإفريقيـة عارضتـه حين وُلِـدَ: إن عارضتنـا، عارضة إفريقية كلها، سـتصبح انشـقاقية، وسـتدير ظهرها لروح باندونج، ثم سـيدير ظهـره لدسـتوره هـو في آخر نقـاش في الأمم المتحـدة، إن وجوده ذاته يشـكل الانشـقاق الأول في قلب العـالم الثالث تاريخيًّا وسياسـيًّا.

في آخـر نقـاش في الأمـم المتحـدة، لم تفعـل الـدول العربيـة والإفريقيـة ذاتهـا إلا أن قطفـت الثمـرة المخيبة لهـذا الانحراف الانشـقاقي، ومـن المؤكد،

نستطيع أن نذكر هنا، ما لدى الإمبريالية من نوايا ميكيافيلية، ومناورات شيطانية.

ولكن، أهذا كل شيء؟ ألا يجب أن نذكر كذلك مسؤوليتنا نحن؟ في الواقع، يعود تاريخ قشرة الموز إلى زمن بعيد، إن المستوى الذي هيأ الاستعمار عليه الانشقاق الإفريقي هو مستوى الأفكار؛ إذ عُمِلَ بادئ الأمر على الصعيد الفكري، وفُصِلَ رجال النخبة الإفريقية بعضهم عن البعض الآخر.

وعوارض الانشقاق ظهرت بادئ الأمر في مختلف مؤتمرات الكُتَّاب السود، مثل ذلك الذي عقد في روما سنة 1959م.

إن بعضهم يدَّعِي أن تأسيس (منظمة الوحدة الإفريقية) جاء تلبية لذاتية إفريقية:

(الإفريقانية) كما يقال، ولكن مؤتمرات الكتاب السود هيأت لذاتية أخرى، هي ذاتية الزنجية (negritude)، إذ نستعمل هنا الكلمة التي استُعْمِلَت في هذه المؤتمرات.

هكذا، وُضِعَت في النهاية ذاتية داخل الذاتية وخُلِقَ تمييز داخل التمييز؛ حيث إن منظمة الوحدة الإفريقية ليست سوى طابق ثانٍ في صاروخ أُطلِقَ ضد وحدة العالم الثالث، لقد انسحبت النخبة الإفريقية في هذه اللعبة، وإذا كنا معجبين بـ (أمية سيزار) المناضل ضد الإمبريالية، المتحمس أشد الحماس والمخلص أشد الإخلاص، فإننا نجد أنفسنا مُجبَرين، للأسف، على أن نَعُدَّه في الوقت ذاته كألمع ممثل للميول الانشقاقية التي ظهرت في الأمم المتحدة.

كذلك، عندما يظهر اسمه مصحوبًا باستشهاد منه في مقدمة تقرير

إذاعـيٍّ حـول بدء السـنة الجامعيـة – كما حصـل في جامعة الجزائر منذ سـنتين – فإننـا لا ندري إن كان يجب أن نرى فيه الخطأ السـياسي، أم الخطأ في الأسـلوب، الواقـع أن الخطـأ ارْتُكِـبَ – عـلى أقـل ما يمكـن – ضد الذوق السـليم.

ربـما جعلونـا هنـا ننزلـق في صغائـر الأمـور!! ولكـن هـذا ليـس عـزاءً لأحـد، ألم يكـن من غـير اللائق كذلـك كل هذا الهـرج والمرج حول شـخص (جـان بول سـارتر) لـدى زيارتـه لجامعة عربية أخـرى؟ خاصة إذا مـا تذكرنا أن كاتبًـا عربيًّـا وضع نفسـه تحـت تـصرف الدولة ذاتهـا (في حـال الاعتداء)، وذلـك قبـل الاعتـداء الإسرائيـلي بشـهر واحـد، لم يُرسَـلْ إليـه حتـى إشـعار بوصـول تلغرافه.

يـا له مـن مـرض! إننـا لا نفقـه الفروقات الصغـيرة، إننـا بليـدو الذهن، ومـن المؤكـد لا يترتب علينـا – نحن العـرب – أن نعطي للآخرين دروسًـا في الإخـلاص للمبـادئ؛ فنحـن ذاتنا نحتـاج إلى مثل هـذه الدروس.

هنـا يكمـن على مـا يبدو فحوى سـؤال الصديـق (س. هـ) كنـت أتمنى – رغـم ذلك – أن يطرح سـؤاله بشـكل أشـد وضوحًا، خاصة فيـما يتعلق بتلك (المسـاومات) التـي كنا ضحيتهـا كما يقول.

ومهـما يكـن من أمر، فإننـا يجب ألا نرى في هذا مسـألة مصادفـة، أو مجرد حـادث في الطريـق، أو مشـهدًا مـن مشـاهد الحياة السياسـية، المشـكلة أعمق مـن ذلـك؛ إن منظمـة الوحـدة الإفريقيـة لم تفعـل ما فعلتـه في الأمـم المتحدة إلا مـا كان يتحتـم عليهـا أن تفعلـه، بالمصادفـة أم بغيرها.

يجـب فحـص الأشـياء بعمـق شـديد، حـين يسـجل شـعب من شـعوب العـالم الثالـث – في نهايـة معركتـه البطوليـة – كلمـة (السـيادة) في مطلـع دسـتوره، فهـذا ليـس كل شيء، إن الإمبرياليـة لا تختفـي بذلك مـن الوجود،

إنها تترك بكل بساطة وسائل ظاهرة في سبيل التمسك بوسائل أخرى، قد تكون غير مرئية (ولكن ليس على الدوام).

ولكنها أشد مرونة وأشد فعالية، وتقدم المناقشة الأخيرة في الأمم المتحدة مثالًا واضحًا جدًّا لهذه الظاهرة، يجب على العمل الثوري إذن أن يتضمن مبدأ عامًّا هو: لكي ننزع الاستعمار عن الأرض، يجب أن ننزعه عن الأذهان.

ولكن إذا كانت بعض الظروف الخاصة ترغمنا على اتباع عكس ذلك، فإنه من واجبنا على الأقل أن ننزع الاستعمار عن الأذهان بعد نزعه عن الأرض.

لقد ترك لنا (غاندي) درسًا حول فحوى التحرير في بلد مُستعمَر، في سنة 1917م، وبمناسبة استئناف الدروس في المعهد الذي أسسته (الآنسة آني بيسانت) أو (بمناسبة افتتاحه)، توجه إلى مواطنيه بقوله: «إن الهند لا تستحق الاستقلال، ما دام المار في أحد شوارع بومباي أو كالكوتا معرضًا لأن يتلقى بصقة على رأسه من إحدى النوافذ».

وفي زمن أقرب إلينا، عندما سحق الشعب الصيني الإمبريالية في سنة 1948م، لم ينقَّض على (الأموال السائبة) في بكين للمتاجرة بها، بل كان أول همه أن يُشَمِّر ساعديْه ليخلِّص عاصمة إمبراطورية الشمس القديمة من أطنان النفايات التي كانت تغرق تحتها.

إن مشروع قنبلة هيدروجينية (وهذا ليس سوى مثل) لا يمكن أن يُدرَك ولا أن يُحقَّق فوق كومة من الأوساخ، تلك هي الانتصارات التي تحرر الفكر، ويأتي - حتمًا- تحرير الأرض بالسلاح بعدها أو قبلها، إن شعبًا يناضل ضد الإمبريالية يجب ألا ينام على أكاليل انتصاره الأول.

فالديموقراطية لا تكمن في كلمة تُسجَّل في مطلع الدستور، بل تَحوُّل الإنسان هو الذي يخلقها، المواطن هو الذي يحملها في أحشائه، وبالأحرى حين يتعلق الأمر بالنخبة من المواطنين.

بذلك فقط، تصبح النخبة الإفريقية غير قابلة للتأثر بإيحاءات الإمبريالية على الصعيد الفكري، وغير قابلة للخضوع لمشاريعها على الصعيد السياسي، بذلك فقط تستحق إفريقية، ونحن جزء منها، أن تنال استقلالها، كما يقول غاندي، وعلى الأخص: طالما أن منظمة الوحدة الإفريقية موجودة كما هي، فإننا لا نستطيع أن نبني تاريخًا من الماضي.

ولكن رجال النخبة الإفريقية يستطيعون أن يغيروها بتغيير أنفسهم، أي بأن يعوا تمام الوعي رسالتهم في صفوف المعركة الكبرى التي يخوضها العالم الثالث، إنها معركة شاملة.

على تلك النخبة أن تقوم بثورتها الخاصة، لكيلا تستمر في الوقوع في أحابيل الإمبريالية، فيها تتعلق - على الأخص - إعادة التفكير بمسألة الانشقاق الإفريقي الذي أُدخِلَ في وسط نضال العالم الثالث؛ لكي تتبدد قواه التي تجمعت في باندونج.

إذا كان على وفد جزائري أن يذهب إلى أديس أبابا، فإن عليه أن يضطلع بدور عظيم، ونتمنى أن يضم الملف الذي سيحمله الوثائق المقنعة في سبيل نفخ روح جديدة في منظمة الوحدة الإفريقية، وأن يتذكر الوفد في تلك اللحظة ويذكر كلمات الرئيس (الأزهري).

دلالة إضراب الجامعة[1]

هنـاك عـادات جميلـة في بعـض البلـدان، يعـاد إحياؤهـا بشـكل دوري، وكأنهـا تعكـس تراثهـا القومـي، أو تُعـبِّر عـن حضارتهـا وثقافتها، في فرنسـا مثـلا يُحتفَلُ دوريًّا خلال أسـبوعين بالثقافـة الكاثوليكية التـي عرفت عصرها الذهبـي - وهـو ليـس بعيـدًا - في الفـترة التـي كان يحييهـا أمثـال (أمانويـل مونييه)، و(ماسـينيون)، و(جيلسـون) وهـو أكبر المتخصصـين بفكر القديس تومـا الإكويني، وأشـدهم حداثـة وربـما عمقًا.

نحـن كذلـك، حصلنا للتوِّ عـلى أسـبوعي الثقافة التي تمطَّـت مثل تثاؤب لا نهايـة لـه.. فقـد راق لطلابنـا أن يفرضوها عَلينـا وكأنها تكفير عـن خطايانا الأولى، تلـك التـي ارتكبناهـا حـين اسـتعدنا مصـير بلادنـا في سـنة 1962م، من يـد المحتـل الأجنبي.

وأخـيرًا، انتهي التثـاؤب.. وعادت النعاج الضائعـة إلى الحظيرة، وفتحت الجامعـة أبوابهـا، ولكـن العاصفة التـي هبت ضمن أسـوارها تركـت وراءها عـددًا كبـيرًا مـن التسـاؤلات التـي تسـتحق الانتبـاه الكبـير، مثـل الفضلات التي يجـب إزالتها بعـد هيجـان الطبيعة.

في سـنة 1962م، لم نفهـم - بـما فيـه الكفايـة - خطـورة اللحظـة التـي كانـت تختـم وتكلـل سـبع سـنين مـن الـصراع البطـولي للشـعب الجزائـري.

إن الفـرح والاعتـزاز -وكنـا نسـتحقهما كل الاسـتحقاق- قـد كتـما، بـل خنقـا فينـا معنـى المسـؤوليات الكـبرى التـي كنـا نسـتلمها في تلـك اللحظة.

(1) "signification de la freve du iuniversite "Revolution africaine, du 28 fevrier au mars 1968.

ويجب أن نضيف إلى هذه الأسباب - وهي جد طبيعية - الأسباب التي أشار إليها الرئيس بو مدين خلال جولته «الأوراسية»، في الواقع كان هناك - أيضًا - شيء من الديماجوجية، ولكن إذا كان (الحكم هو التنبؤ) كما يقول (ميترنيك)، فإن الديماجوجية لا تترك مجالًا للتنبؤات.

إن الحكام في تلك اللحظة كانوا يميلون إلى خداع الرأي العام المنتشي، أكثر مما يميلون على تنويره على صعوبات المرحلة الجديدة، لهذا البلد الذي كان عليه أن يُبنَى من الصفر، إلا أننا كنا في مرحلة حرجة، كتلك التي يضعها (أوجين سو) في نهاية مأساته (اليهودي الشارد) حين يختفي الشخص اليسوعي الذي يجسد (سياسة القوة) - بعد الفشل الذريع - ويخلي المكان في المرحلة اللاحقة ليسوعي آخر يجسد الحيلة.

والحقيقة أن أقل ما كنا نتعرض لخطره في سنة 1962م، هو مشاهدة الاستعمار يخرج من الباب، ليعود من النافذة، ولكن على ما يبدو لم نكن نفكر بهذا الاحتمال حيث نجابهه باليقظة الضرورية والإجراءات السياسية المطلوبة، بكل بساطة، تركنا نوافذنا مفتوحة، بل إننا فتحنا نوافذ أخرى، وعلى الأخص، على الجبهة الأيديولوجية التي بقيت وحدتها وصلابتها غير منقوصة حتى ذلك الحين، بفضل تماسك موقفنا الدائم في وجه المحتل، ولكن التماسك زال بعد ذهاب المحتل، وزال معه نظام الدفاع الأيديولوجي، فبات قابلًا لأن يُخرَق.

في تلك الحالة من التماسك المتلاشي، إذن، وفي جو مشحون بالديماجوجية، شرعنا في حل مشاكل الاستقلال. فلم نُقَدِّر بعضها حق قدرها، وبالغنا في تقدير البعض الآخر، حتى أهملنا بعضًا منها.

وهكذا، كان على التعليم العالي عندنا أن يعاني على الأخص من ذلك

العجـز، لقـد طرحـت مسـألة التعليم العـالي في الواقـع، ولكنهـا طرحت على مبـدأ (المحافظة على المسـتوى).

ليـس مـن شيء أهـم مـن ذلـك في الظاهـر، كان ذلـك طموحًـا جميـلًا ومشروعًـا، شرط أن تتحـول تلقائيًّـا رغباتنـا إلى وقائـع (حقائـق) وأن يصبح المبـدأ ذاتـه أمـرًا واقعًا (ملموسًـا) للأسـف، شـتان مـا بـين الرغبـة والواقع.

يجـب أن نتتبـع تطويـر تعليمنا العالي، منذ خمس سـنوات، لنفهـم أن المبدأ الـذي سـارت عليـه كان خاطئًـا، وبهـذه الطريقـة أيضًـا نفهم كيف أن السـنة التـي أُعلِـنَ بحسـن نية – منذ بضعة أشـهر فقط – أنها سـتكون سـنة التنظيم، كانـت بالضبط سـنة الأزمات.

كيـف سـارت الأمـور لتصـل إلى هـذه النتائـج؟ لا شـك يجـب أن نتبـع التطـور الـذي سـارت فيه، وعـلى الأخـص التأثيرات التـي خضع لهـا طلابنا حتـى خـلال السـنوات السـبع مـن الثورة.

ولكن لِنُعِد المشـكلة إلى عبارتها الأبسـط، في سـنة 1962م كانت المشـكلة تكمـن أساسًـا في خيـار واحـد: كان الأمر يقـضي إمـا بتحويل تعليمنـا العالي ليتـلاءم مـع حاجاتنا ومـع وسـائلنا، وإما بتركـه كما هو.

ووقـع الخيـار على هـذا الاحتـمال الأخير عـلى أن يتضمـن (المحافظة على المسـتوى) بطريقـة غـير مبـاشرة، واليوم، وعـلى ضـوء الأزمة الأخـيرة، نرى بشـكل أفضـل نتائج عبـارة خلَّابة تُخفـي خيارًا تعيسًـا، ومع ذلـك لا يبدو أن هنـاك مـن يدركها كلهـا بوضوح.

إذن يجـب إعـادة طـرح المشـكلة مـن جديـد، ومـن المنظور الأبسـط على الأقـل، ولنذكـر – بـادئ الأمـر – المحـاولات الشـكلية التـي كانـت خـلال السـنوات الخمـس الأخـيرة مجـرد مشـاريع وُلِـدَت ميتـة؛ لأنهـا لم تكـن تعبر

عـن إرادة حقيقيـة بتغيـير جهـاز تخريـج الـكادرات في بلادنا، بـل كانت مجرد تقليـد لتغيـيرات حدثـت في العالم.

إلا أن الأمـر لم يكـن يتعلـق بإصـلاح تعلمينـا العـالي، لحـدوث إصـلاح (فوشـيه) في فرنسـا، بـل وبـكل بسـاطة لوجـود حاجـة ملحـة للإصـلاح في الجزائر.

ولكـن مبـدأ (الحفـاظ عـلى المسـتوى) أصبـح حاجـزًا، يقـف في طريـق كل محاولـة مـن هـذا النـوع، ويمنـع مـن التقـدم خطوة نحـو الأمـام، لدرجة أن تعليمنـا الجامعـي بـات بعـد إصـلاح (فوشـيه) هجينًا ممتـازًا: فهـو لم يكن فرنسـيًّا ولا جزائريًّـا.

في تلـك الأثنـاء، وفي حـين كنـا نـراوح مكاننـا أمـام ذلـك الحاجـز، كان المبـدأ الذي اتخذناه يسـير طبيعيًّـا نحو نتائجه المـضرة بكاملهـا، ولكي نحافظ عـلى المسـتوى، كان علينـا عـلى الأخـص أن تـترك كل نوافذنـا مفتوحـة، وأن نفتـح نوافـذ أخـرى، أمـام كل الريـاح الأيديولوجيـة، أمـام كل الريـاح التي أثـارت تلـك العاصفـة التي مـرت بجامعتنـا، ويمكن هنـا أن نذكـر تفاصيل بنـاءة جـدًّا، حـول طريقة دفـع العاصفة باتجـاه شـاطئٍ كان يُخيِّم عليـه الهدوء المناسـب للدراسـة وللتفكير.

لكـن، لنترك التفاصيـل الروائية جانبًـا، فهذه الأسـطر مخصصة بالأحرى لبيـان الآثار المشـؤومة لمبـدأ – هـو في الظاهر – قيِّـم ومُغرٍ جـدًّا؛ فالمبدأ الذي اتُّبَـع كان مـن المنطـق أن يُـؤدِّي إلى مبـدأ آخـر، هو مبـدأ (المعـادلات)، وهذا الأخـير أدى بـدوره إلى نتيجتـين: إحداهما تخـص نتاجنا الجامعـي، والأخرى استعماله.

لا بـد أن نعطـي هنـا شـواهد عـلى مـا نقـول، إن مرحلـة الطـب – عـلى

سبيل المثال – كان من الواجب أن تُحصَر – من حيث المنهج – بفترة زمنية تتلاءم مع الحاجات الملحة لجهازنا الصحي، لكن تم الإبقاء نظريًّا على الفترة الزمنية التي تتلاءم مع مبدأ المعادلات، أي ست سنوات.

رغم ذلك ومن المنظار العملي، أضحت هذه الفترة أطول، بسبب عاملَيْن إضافيَيْن مختلفَين في طبيعتهما، ولكن كان لهما الأثر ذاته على مدة المرحلة.

وهناك أمر في نسبة السقوط المرتفعة، ألاحظه في الامتحانات الأخيرة، ارتفاعًا غير طبيعي في إحدى سنوات الطب، ولا أقوم هنا بأي انتقاد لهذه النتيجة، إنما ألاحظ الأمر فحسب، وأترك لمسؤولي التعليم العالي مهمة تحليله.

وأُدوِّن هنا إحدى نتائجه: إن الجزائر، البلد النامي الذي يحتاج إلى تسريع نتائجه في شتى الميادين، سيخرج على – هذا المنوال– الطبيب في ثماني سنوات، أو حتى في عشر، وبالإضافة إلى ذلك أترك لمسؤولي التصميم النظر في تطور هذا الإنتاج البطيء، هذا فيما يتعلق بالإنتاج.

ولا أقول أي كلمة عن هذا الإنتاج بالنسبة لمقاييس الاختيار التي تستحق رغم ذلك كل الانتباه، فإذا انتقلنا الآن إلى الاستعمال، وجدنا أن مبدأ المعادلات كان له أثر أشد ضررًا، وأريد أن أقول أكثر فضحًا.

الحقيقة أن 50 بالمئة من أطبائنا حاليًا في الخارج، لقد فتح لهم مبدأ المعادلة الباب أمام هذا القرار، بمساعدة معادلتهم الشخصية، وبكلمة أخرى، فإن جامعتنا تُخرِّج ببطءٍ طلابًا قد يُجذَبُون إلى الخارج.

هذه النتيجة الأخيرة استقيناها مع شيء من السخرية المبكية من تقرير– تكلمت عنه في إحدى مقالاتي السابقة – قدمه عالم اجتماع إيراني، كان اليونيسكو قد كلفه بالتحقيق في كيفية استخدام نخبة العالم الثالث،

وعندما ذكرت بنفسي هذا الواقع في شكله العام، أرفقته عمدًا بتعليق قلت فيه: إن العالم المتقدم لا يكتفي بالاستحواذ على المواد الأولية الثمينة من العالم الثالث بأرخص الأسعار، بل يستحوذ كذلك على المادة السنجابية الضعيفة والتي تُكلِّفه غاليًا.

وأضيف هنا أننا أنفسنا - على صعيد الجزائر - نستجيب بشكل رائع لذلك الشكل من أشكال الاستغلال، فالحقيقة أن عجزنا التام عن القيام بإصلاح تعليمنا العالي في الوقت المناسب هو الذي يجعل بالإمكان حصول هذا الاستغلال.

لقد ذكرنا للتوِّ النتائج فحسب التي تقع في أساس بنيات التعليم العالي، ويجب أن نضيف الآن أن كل هذه النتائج تصبح أشد خطورة، بسبب الرياح الأيديولوجية التي تدخل مندفعة في نظامنا الجامعي من كل أبوابه ونوافذه؛ لأننا لم نتخذ أي إجراء احتياطي في هذا الميدان.

يُقَال: إن «من يزرع الهواء يحصد الرياح»، لقد حصدنا لتوِّنا مجانًا عاصفة نفخ فيها الآخرون؛ أي السحرة المشعوذون والصراع الأيديولوجي.

لقد ملك هؤلاء السحرة أيضا فن (التنويم المغناطيسي)، فقد كفاهم بضع كلمات خفية وبضع حركات سحرية حتى يُغرِقوا طلابنا في حالة نوم مغناطيسي، وذلك بوساطة - أو بالأخرى بتواطؤ - بعض (الوسطاء) المُنْتَقين بعناية من بين صفوفهم.

ويكفينا أن نقول هنا: إن الأزمة التي مرت بها الجامعة حديثًا تُبيِّن أن سلوك الطالب يضيف عامل إعاقة آخر على تلك التي ذكرناها منذ لحظة، فبدلًا من تخريج طبيب بعد ثماني سنوات، من المحتمل ألا نراه تخَّرج قبل مرور عشر سنوات.

وبالطبع سيتطلب تخريج الصيدلي والمهندس والقاضي والأستاذ مبالغ أكبر، في حال لم يتغير شيء في هذه الحالة التي لا تقدر - على ما يبدو - أسبابها ونتائجها حق قدرها، رغم ذلك، هناك شيء واضح، تلك الأزمة التي مرت مؤخرًا ليست سوى علامةِ نذيرٍ، إننا نجابه الآن أعلى الموجة، فإذا لم يتغير شيء من الآن وحتى أربع سنواتٍ، فإننا سنواجه موجة القهر التي تتهيأ الآن في الصفوف الثانوية، لم نبلغ هذا الحد بعد، والحمد لله، إن الطلاب الذين تصرفوا بتعقل وعادوا إلى قاعات الدراسة قلبوا بذلك صفحة مؤلمة.

إنما نريد أن نأمل بأنهم سيفكرون فيها بأنفسهم، لكيلا تُسجَّلَ كوصمة عار في تاريخهم فيهزأ الناس من هذيْن الأسبوعيْن الثقافييْن، ويسخرون قائلين بأنهما (أسبوعا اللاثقافة).

أخوة في الإسلام

ليدز:

لست أدري في أي ضاحية من ضواحي تلك المدينة الصناعية التجارية، يقع الشارع الذي فيه يسكن ذلك الطالب السوري الموطن، وذو الأصل الجزائري، والذي تحدر من نسل الأمير عبد القادر.

الذي أعرفه فقط، أن ذلك المنزل الصغير الذي دُعِينا إليه، يتكون من طابق أرضي وطابق أول، ويَدْلُف عبر سلم صغير إلى مساحة ضيقة من العشب الأخضر، تفضي إلى الرصيف مباشرة، طبقًا للطراز السائد في البيوت الإنجليزية في تلك الناحية.

لقد لحقَتْ بالطالب شقيقته التي تتابع هي الأخرى دروسها في جامعة (ليدز) ثم كان أن تبعتهما العائلة بأسرها: الأب لفحوصات طبية خاصة، والأم لتكون في رعايته.

جو غائم لبني اللون يغلف الأشياء حولنا، وإذ غُرِسَتْ في العشب الأخضر شجيرات ميلاد، جُلِبَت للمناسبة، فقد كانت تتراءى لنا كنبات أخضر به قعر البحر.

في الداخل كنا في جو عيد الفطر، والمنزل الصغير، بفضل مَحْتِد ساكنيه، ورقة تعاملهم مع الناس جميعًا، أضحى الموئل للعديد من المسلمين: باكستانيين وسوريين وعراقيين؛ ولذا فقد كانوا كثرًا ذلك اليوم؛ ليقدموا تهانيهم لتلك العائلة الجزائرية، التي أقامت في دمشق منذ مئة عام، حينما سمح نابوليون الثالث للجد العظيم أن يلجأ إلى الشرق.

كان الحديث عن الجزائر، وقد أثار اهتمامًا شديدًا، حتى في عينيْ تلك الجميلة التي جلست بالقرب مني، ولكنها تهرب بضفائرها الصغيرة الشقراء إلى ذراعيْ أمها كلما مازحتها قائلًا: سوف آخذك معي إلى الجزائر.

أما أبوها الذي يتابع دراسة الطب في المدينة، فقد انهمك يلتقط العديد من الصور الفوتوغرافية لجمْع شديد الاختلاف في أصوله، لكنه شديد التجانس في أفكاره وشعوره واهتماماته.

كنا إذن وعلى مستوى صغير مجتمعًا واحدًا، يقلب مشاكله، يقيس فيها هموم الخيبة أو حظوظ النجاح.. مجتمعًا جزائريًّا شِئْتَ، أو عربيًّا، أو إسلاميًّا، أو إنسانيًّا؛ فالاهتمامات أخذت بالنسبة إلينا مداها في سائر أبعادها.

جو العيد يدفع بالذكريات، فتجيش بها الخواطر، ويشرد الذهن في أحداثها وما تناءت به السنون، ورب العائلة.. سليل الأمير الذي يرقد رفاته في مقبرة العالية في الجزائر، قد أخذ من ذلك بقسطه، فحدَّثَنا بما اتفق له من الذكريات.

وقاده الحديث إلى ذلك العصر، الذي كان فيه عبد العزيز بن سعود قد بدأ إصلاحاته الأولي في مملكته، وهكذا بدا له أن يؤدي فريضة الحج في تلك الحقبة، وهي الحقبة نفسها التي أدت فيها والدتي فريضتها.

لم يكن الأمر في ذلك الزمن قد بلغ الحد الذي بلغه اليوم؛ حيث يمكن أن يُسحَقَ امرؤ بكل معنى الكلمة، بزخم العديد الذي لا يُحصَى من الحجيج الذين يطوفون حول الكعبة، أو تتقطع أنفاسه بضغط تلك الآلة الضخمة من الكتل البشرية التي تتحرك في طوافها.

الأمر في ذلك الزمن كان مختلفًا، والحاج في وسعه أن يُتمَّ أشواط الطواف براحة، ويتفحَّص خلالها الوجوه إذا أراد، كما يمكن له أن يتخذ منها معارف.

مضيفنا قد تعرف بالفعل إلى ثلاثة أو أربعة من الصبيان، تُنبِئ شعورهم المجعدة وألوان بشرتهم، أنهم من إفريقية السوداء.. الأطفال أمسكوا بأيدي بعضهم بعضًا، وهم يطوفون أشواطهم حول الكعبة، وإذ رآهم المهندس الحاج، فقد مالت نفسه إليهم عطف أبوة، فكان كلما التقى بهم في الطواف، يوزع عليهم بعض الحلوى.

أما أبوهم الذي ربما أبصر صنيع المهندس الحاج بالأطفال- أو هم حدثوه بأمره؛ إذ هم إخوة - فقد أراد بدون شك، أن يعبر بطريقته عن شكر الرجل، الذي أضفى على أطفاله السرور.

وقال له:

- أريد أن أصبح أخاك.

وأجابه:

- نحن إخوة بالفعل؛ لأننا مسلمون.

لم يشأ الحاج الإفريقي الاستماع، بل أردف مؤكدًا فكرته:

- أريد أن نصبح أنت وأنا أخويْن بصورة أخص.

قال له:

- حسنا، قل لي ما ينبغي أن نفعل لنصبح كذلك، وسأفعل ما تُمليه عليَّ .

هنا .. أخرج الحاج الإفريقي من ثوب الإحرام صرة حوت رزمة من الريالات السعودية، وقال له:

- هذه دراهمي.. ضع دراهمك التي معك فوقها ونتقاسمها مناصفة.

المهندس مُحدِّثنا بقي لبرهة مشدوهًا، وقد أوضح لنا:

– ليس لأني شككت ولو للحظة في مصداقيته وعفويته.

ثم أطرق مضيفنا بعيون حالمة، كمن يستجمع شتات ذكرياته.. وتابع:

– ولكني خفت أن يشك هو نفسه بمصداقيتي، فأنا في ذلك اليوم بالذات – وكما هو شأني في كل مرة أطوف فيها – لم أحمل معي غير دراهم من الحجم الصغير من أجل الفقراء، ومن الممكن أن يظن بأني أخفي دراهمي حتى لا أتقاسمها معه.

لست أخفي على القارئ.. فقد بدأت القصة تأخذ من نفسي إثارتها، وهكذا تعلقت عيناي بشفتي الراوي الذي تابع يقول:

– لكن الحاج الإفريقي أصر عليَّ بشدة، فيما كان أولاده يرمقونني بنظرات الحنان، ولم أجد بدًّا من أن أخرج من حافظتي تلك الدراهم القليلة قائلًا له:

– هذا كل ما معي..

وبدت رؤيا حالمة مرت أمام عينَيْ محدثنا ثم استرسل:

– الحاج الإفريقي أخذ دراهمي، وخلطها بدراهمه، وقسمها جميعها بكل دقة قسمين، ثم أعطاني نصيبي، وشدني إلى صدر قوي البنية وقال لي ببساطة:

– الآن أنت أخي.

سليل الأمير لم ينم ليلته تلك؛ إذ عقب عناقهما الأخوي هذا قص عليه الحاج الإفريقي قصته، بل ملحمته الإفريقية.

لقد ترك موطنه في إفريقية الجنوبية، قبل أربع سنوات مع أطفاله وزوجته، التي أنجبت له عبر الطريق طفلًا ما زالت ترضعه، لقد قطع الطريق ماشيًا حتى (بور سودان)؛ حيث وجد هنالك من يسعفه بمكان

عـلى ظهـر مركـب صغـير، يحمـل الحجـاج إلى جدة.

وفي رطوبـة الجـو المكـي، قـضى محدثنا ليلـة بيضـاء، لا يغمض لـه جفن، يتقلـب مـع تلـك القصة التـي تعتمل في رأسـه.

لقـد قـرر في صبـاح اليوم التـالي زيـادة نصيبه في (الأخـوة) التي اكتسـبها بالأمـس، والتـي كان الحـاج الإفريقي قـد دفـع في النتيجة ثمنهـا بأكمله.

هكـذا وضـع بعـض الأوراق الماليـة في مغلـف، ثم خـرج يلتقـي (أخاه) فوجـده يطـوف حـول الكعبـة، مـد إليـه المغلـف فالتقطـه بحركـة آليـة، ثـم أكمل الشـوط.

ولكـن.. ها هو الحـاج الإفريقي يفاجـئ المهندس، وهو يمسـك بالمغلف مفتوحًـا بأطراف أصابعه كمن يلتقط شـيئًا نجسًـا.

لقـد تقـدم إليـه بقسـماته السـوداء، وشـفتيه المُزرقَّتـيْن، وعينيـه الحادتين، وقـال بصـوت أجش:

– أنا لا أخذ ثمنًا على أُخوَّتي؛ لأنني لا أبيعها.

وحـين كان محدثنـا ينطـق بهـذه الكلـمات، كانـت رنـة صوتـه قـد بـدأت تتغـير مـن فـرط التأثـر، وبـدا لي كأني أرى المشـهد بنفـسي يمـر أمـام عينـي.. لسـت أدري إن كان قـد رأى منـي مـا كنت قد رأيتـه منه؛ ففي تلـك اللحظة، كان كل منـا يقـوم بالحركـة نفسـها؛ إذ كلٌّ منـا قـد مسـح دمعـة تسـللت مـن طـرف عينه.

وربـما كان لـديَّ سـبب إضـافي جعلني متأثـرًا بتلـك القصة؛ ففـي واحد مـن كتبـي صـدر في باريـس عـام 1954م، تحدثت عـن الفرق الأسـاسي بين مفهومـين يخلـط بينهـما الفكـر الإسـلامي المعـاصر، إنـه يخلـط بـين مفهـوم (الأخـوة) ومفهـوم (المؤاخـاة).

ففـي المفهـوم الأول فـإن شـعورًا أو مجـرد كلمة من شـخص وأيـة واقعة تربـط بـين رجلـين، إنـما هـي رابطـة أقـوى مـن الرابطـة التـي تمليهـا رابطـة النسب .

إنهـا كتلـك الواقعة التي ربطت قديـمًا بين الأنصار والمهاجرين، فأسسـت مجتمعًا جديـدًا، وحضارة جديدة.

والحـاج الإفريقـي قـد حمـل بـين جوانحـه - في أربع سـنوات من المسـير في الغابـات والأدغـال الإفريقية ورمال الصحراء العربية - رسـالة الإسـلام، تلـك التي عـبرت القرون.

لقـد طلبـت مـن سـليل الأمـير الـذي حدثنـي بتلـك القصـة السـماح لي بروايتهـا بـدوري للقـراء الجزائريـين.

مجلة الثورة الإفريقية العدد 262 - الأسبوع

22 - 28 من شباط (فبراير) 1968م

ترجمة ع.م

الفصل الثالث

نحن والاستعمار

أرغن الإمبريالية[1]

إنني أدين بمعلوماتي عما أنشره لصديق أُوتِيَ نعمة الجلد على القراءة، وأنا مدين له على الأخص باطلاعي على الأَحداث اليومية، فهو يقرأ الصحف أيضًا بانتظام.

وإذْ فتحْتُ له الباب ذات صباح، رأيت على وجهه أمارات الاستياء؛ فأنا اعتدت أن أقرأ الأخبار - أولًا - على قسمات وجهه، فأعرف إن كانت سيئة أم جيدة.

ولم تخطئني الفراسة هذه المرة، فقد كان يحمل لي نبأ سيئًا لابد أن تكونوا قد قرأتموه في الصحف.

ففي تقريرٍ للجنة الفرعية للمساعدات العسكرية (الخارجية) التابعة لمجلس النوابٍ في الولايات المتحدة الأمريكية، تكلَّم اللواء في البحرية (هاينز).

إن الوثيقة (السرية) لم تُسرَّب إلا من أجل أن يأتي مفسروها الجزائريون فيوصونا مرة أخرى بالحذر - والكلمة بالفعل شائعة اليوم - وذلك بإعلامنا أن اللواء الأمريكي يحتفظ لنا بِجَرْوٍ من كلبته.

وأوجز صديقي ما أعلمني به مكرِّرًا علي بأن ذلك كان خطيرًا جدًّا.

هذا أكيد، وأنا- فيما يخصني - لا أحتاج إلى يمين لكي أصدق أن ما يغلي في حَلَّةِ الشيطان ليس ماء الحياة يريد به أن تستعيد شعوب العالم

(1) "lorgue de limperialisme ,"Revolution africaine, no 240- senaube olu 18 au 24 sep tembre 1967.

الثالث شبابها، ولا يُدهشني ألبتة أن النابالم وما يشبهه هو من (المأكولات اللذيذة، مما ينتجه مطبخهم)، بل هو بالأحرى ما يُقدَّم في هذه اللحظة لشعب فيتنام، وهو ما عرف العرب طعمه من قبل في سيناء.

وأنا لست قليل الفهم كي أظن عكس ذلك، ولكنني - وهذا أمر عجيب - لم تشعر بشرة جلدي بخطورة هذه المعلومة بالدرجة ذاتها، التي بلغت عند صديقي.

أَلِأَنَّ بشرتي قد غلظت؟ ربما بفعل تقدم السن، وربما أيضًا بسبب تجربتي التي تجعلني متشككًا وباردًا بعض الشيء في بعض المواقف.. كما وكأنَّ قُوى الاستعمار تريد أن تقتلنا بضربة جرس، مثلما يَجري في تجربة بافلوف الشهيرة، التي كررها على الفئران.

إن الشيطان يريد أن يتسلَّى على حسابنا أحيانًا، أن يرى كيف ندخل في جحورنا الصغيرة، عند أدنى ضربة جرس، أنا لا أقول إن لعبته - عندما يريد أن يلعب - بريئة براءة لعبة الأطفال. كلا، بالطبع .. فلُعْبتُه ذاتها تكتيك وتقنية، بل إنها سياسة عُلْيا.

وإذا راقب أحد ما لبعض الوقت بانتباه، وبشيء من الحس السليم، إنه سيكتشف أن الاستعمار يعزف في دول العالم الثالث، على أرغن ذي دَعستيْن. (أنا لا أعرف إذا كان لهذه الآلة الموسيقية أكثر من دعستين، وأعتذر للقارئ؛ فأنا لست من الاختصاصيِّين في هذا الميدان).

كل ما أريد أن أقول هو أن الاستعمار - عند صديقنا - يضع رجله على الدعسة التي توجه الضياع والتفكك والانحلال في الدول النامية، والتي تؤدي إلى فسادها وخمولها وتعفنها.

وإلى الأمام على هذه الدَّعْسَة! إنها موسيقى تسحر حتى البلاهة،

حتى النشوة، حتى الفناء، حتى الحلم، وإلى غيبوبة الرادارات العربية صبيحة 5 حزيران.

وإذا لم تنسلخ نخبة هذه البلاد، ومسؤولوها، وشعبها، عن ذلك السحر، فإن تلك الموسيقي، وذلك الصوت العليل الرقيق، سيستمران حتى لا تعود كلمة (استقلال) تعني شيئًا على الإطلاق، سوى تلك السخرية الشنيعة التي تهيمن على مصير أمة فائقة التخلف.

ومن ناحية أخرى، فإن هذه الدعسة لا تضرب على وتر واحد، بل إنها تعطي سُلَّمًا كاملًا من النغم، فلكلٍّ معزوفته الخاصة، حسب مزاجه، ووضعه الجغرافي، وحسب الظروف الدولية.

إن إخواننا في الكونغو، وإخواننا في كل مكان، وكل الهالكين (الذين نزلت عليهم اللعنة) على الأرض الإفريقية الآسيوية، منغمسون في هذه النشوة الساحرة، بعضهم في (نيرفانا) جزيرة الأحلام واللذائذ، والبعض الآخر في كابوس طبول يقرعها إبليس.

ولكن إذا كانت حكومة ما، أو نخبة ما، أو شعب ما، أو شخصية فريدة ما، أو إنسان ما كـ(مُصدَّقٍ)، إذا كان من الجرأة والصلف؛ حيث يعكر حلم هؤلاء، وكابوس أولئك، ماذا يجري عندئذٍ في قاعة الاستماع؟

فيما يتعلق بمصدق، أنتم تعلمون ما جرى؟

ولكن، وبشكل عام، ماذا سيجري لأولئك الذين لا يريدن أن يعيروا آذانهم الموسيقى؟ ولأولئك الذين يستمعون إلى أغانيهم الخاصة؟ ولأولئك الذين بدءوا يتكلمون عن التغييرات، وعن التطورات، عن الإصلاحات في معنيَيْها - إصلاح ما بات لا يُستعمَل وإصلاح ما يجب أن يُكيَّف بشكل أفضل للاستعمال - ولأولئك الذين شرعوا في المطالبة بأشكال جديدة،

وبنيـات جديـدة، وخطى نحـو الأمام؟

آه! هكـذا إذن! أنتـم لم تعـودوا تريـدون أن تبقـوا في ذلـك الفسـاد!! ولا ذلـك المستنقع الآسـن!! ولا النيرفانـا والتام - تـام!! أنتم تريـدون، على حد قولكـم، الطهـارة!! والاسـتقامة!! والنظـام! والحركة! والعمـل! انتظروا!

ويضع المُوسـيقيُّ الماهـر رجله على الدعسـة الأخرى، لهـذا التغيير دلالة! إنـه سـلم نغـم التهديـد، والوعيد والابتـزاز.. هذا يعنـي في لغة (جـان جابين gabin jeen):

«لا تلمـس المـال». هـذه العبـارة تُقـال لـك فقط بلغـة موسـيقية سريعة، وأسرع، وخفيضـة .. حسـب لهجـة بعـض أمـيرالات البحريـة، أو أحـد مفسريـه.

و(المـال) هنـا هـو سـائر مـا تريـد التغلـب عليـه، وتجـاوزه، ونسـيانه: الفسـاد، الانحـلال، والإخـلال بالواجـب، الفضيحـة، النصـب، ومـا عداه.

إن الاسـتعمار يقـول لـك بـكل بسـاطة: «لا تلمـس» كل ذلـك، كل هـذا الرأسـمال الـذي يمثـل اسـتثماره الأهـم والوحيـد في مدينتـك، في بلـدك، في سـائر دول العـالم الثالـث، إنـه أكثر من إسـو، وسـتاندرد، وأرامكـو، والنابالم مجتمعة .

إنـه لا يريـد لنـا مـن الـشر أكثـر مـن ذلـك، إنـه يقـول لنـا فقـط: تعفَّنوا بهـدوء! لا تُسـمعونا أصواتكـم، ولا احتجاجاتكـم، في القاعـة التـي تصـدح فيهـا موسـيقي النيرفانـا، والتـام- تـام والأحـلام، والكوابيـس! وعـلى حكومتكـم ألَّا تزعـج النـاس الذيـن يتمتعـون بالحيـاة الناعمـة في الداخـل، أو في الخـارج، ببضعـة مشـاريع تُحسِّـن بهـا الجـو الاقتصـادي، والاجتماعـي، والسـياسي! ولْتُغمِـدْ إرادتها الضعيفة في جيبها، أو في رأسـها، أو حيث تشـاء!

هـذا مـا تعنيه لعبة الدعسـة الجديـدة. بالطبـع، إذا أصررتـم، وإذا أرادت حكومتكـم أن تدخـل مرحلة التنفيـذ، عندها يمكـن للموسـيقي الماهر الذي يـدوس عـلى هـذه الدعسـة، أن ينتقل إلى (نوتـة) النابالم، وإلى سـلم (مشـاكل على الحـدود). هـذا ممكن!

ولكن! لنفترض أنه أكيد.

هـل ينبغـي أن نبقـى (مسـتمعين) لموسـيقى الدعسـة الأولى؟ أن نبقـى في قاعـة الاسـتماع، بانتظـار الخطـر الخارجي مـن النيرفانـا والتام – تام والفسـاد والتأمـلات والفنـاء في مكاننـا، كـما جـرى لطائراتنـا العربية صبيحـة الخامس مـن حزيران؟

ها هي المشكلة قد طُرِحَت، أخيرًا.

في الواقـع، عنـد الاسـتعمار معلومـات عنـا، أكثـر بكثـير ممـا عندنـا عنه، إنـه يُكيِّف بكل بسـاطة موسـيقاه وفقًـا لانفعالاتنـا، ولعقدنا، ولنفسـيتنا، إنه يعـرف مثـلًا أننـا تجاهـه لا نفعـل، وإنـما ننفعـل، وهو عندمـا يكون قـد دخل مرحلـة التفكير في مشـاكل الغد، في الحفـر الموحلة، التي يريـد أن يوقعنا فيها، نكـون نحـن لا نزال نُفكِّر في مشـاكل الأمـس، في التخلص مـن الحفر الموحلة التـي أوقعنا فيهـا فعلًا.

الأسباب الصغرى والمسببات الكبرى[1]

أسباب صغرى لنتائج كبرى.

إن الاستعمار مضطر لأن يعمل باستمرار، على ضبط ملف يسمح له بمراقبة الوضع السياسي في العالم، ورصده في كل لحظة.

قد لا تظهر هذه الضرورة واضحة في أعين أولئك الذين لا يملكون فكرة واضحة، عمَّا يُسمَّى اليوم (تقنية العمل) حتى ولو كانوا أنفسهم منغمسين في عمل تقني؛ ذلك لأن هذه التقنية حصيلة تقليدٍ طويل، يمتد عبر القرون، أكثر مما هي ثمرة علم، يُكتسَب على مقاعد الدراسة في الجامعة.

ولكن، إذا كان من المحتمل ألا نجد في الاستعمار الكثير من الفضل – وعلى الأخص فيما يتعلق بالفضائل الأخلاقية – فإننا لا نستطيع أن ننكر عليه، رغم ذلك، فضيلة التنظيم، والمنهجية، وبكلمة أخرى فضيلة تنظيم العمل تنظيمًا تقنيًّا.

ولابد أن نقول: إنه أستاذ في هذا المجال، بالتالي، فإن ضبط (ملف) لرصد الوضع السياسي في العالم أمر طبيعي جدًّا في نشاط هذا الأستاذ.

ولكن يَبقَى علينا أن نفكر – وهذا ما يهمنا على وجه الخصوص – في المكان المخصص من ذلك الملف للدول الإفريقية الآسيوية التي نالت استقلالها منذ نهاية الحرب العالمية.

(1) "petites cause et grands effett ,"Revolution africaine ,no = 136, 3 September, 1965.

إننا أنفسنا ننتمي إلى العالم الثالث؛ فلْنحاولْ إذن، أن نفكر بتقويم المكان المخصص لنا، لابد من أن نعود أدراجنا إلى الوراء، إلى عهد المرحوم (فوستر دالس) الذي جسد في الواقع كل طموحات الاستعمار الجديد واهتمامات سلطته المدنية: أي الجيش.

كان الأمر يتعلَّق عندئذٍ - كما نَذكُر - بسياسة المحاور والتبعية التي بشَّر بها المرحوم سكرتير الدولة في سياسته الإفريقية الآسيوية.

نقول هذا دون أن ننسى - رغم ذلك - سياسة أخرى من سياسات المحاور[1].

ولكن هذه الأخيرة لم تكن ترتبط مباشرة بالعالم الثالث قدر ارتباط السياسة الأولي به، فالأولى كانت تهتم - فعلًا، وعلى الأخص - بتياراته السياسية، وذلك بتصنيفها - كما ينبغي - في تيارات مواتية، وأخرى غير مواتية، وفقًا للمقاييس التي يضعها سكرتير الدولة.

بناءً على هذا التصنيف المبدئي كانت الدولة الإفريقية الآسيوية تُسَجَّل في ملف المراقبة كدولة (خطيرة) أو (فاترة) أو (متحمسة).

إلا أن الناس الذين يقومون يوميًّا بهذا العمل ليسوا هواة يملؤون أوقاتهم بإلصاق العناوين المُصنِّفة على الدول الإفريقية الآسيوية، أو على رؤسائها. إنهم يقومون بعمل التصنيف هذا في إطار هدف سياسي ليس إلا.

ولنأخذ على سبيل المثال شخصًا مثل (مصدق)، يُصبِح وقحًا، ويخلق في وقت ما مشكلة خطيرة في طهران، في الحال، يُعطِي الملف الحل، يخرج

(1) يستتبع سياسة المحاور هذه الظاهرة الانعزالية؛ فالإستراتيجية العامة إذ تقوم بمراجعات مفتتة يمكن أن تخبئ المفاجآت، وعلى الدول (غير الكبرى)، قبل أي شيء، أن تعتمد على نفسها؛ لكي تتجنب الفراغ والضياع.

أبطـال الأولمب مـن حلباتهم، ومـن ملاعبهـم، ويدخلون المسرح السـياسي.

فيُحطَّـم مصـدق ووزيـر خارجيته، ويُقتَـل فاطمي، وفي واشـنطن، يخرج السـيد فوسـتر دالـس، وهـو المُضحِك الـذي لا يَضحـك، ليقـول للصحافة: إنـه، في الواقـع، هنـاك أمـر مـا يجـري.. في طهـران. هـذا مـا يفعلـه التصنيف العالمـي، إنـه إذن ليـس أداة تسـلية أو لعبـة، بـل هـو أداة عمـل، إنـه يسـتطيع بتصنيفـه الـدول أن يعطيهـا السياسـة التي تناسـبها.

أن تكـون هنـاك (سياسـة) مـا تجـاه بلـد مثـل الجزائـر، الـذي يطالـب بالتعريـب والإسـلام والإفريقيـة والاشـتراكية؛ فهـذا أمـر طبيعي جـدًّا، وأن يكـون الملف الـذي يُملِي هذه السياسـة موجـودًا في هذه العاصمـة الكبرى أو تلـك، فهذا أمـر لا يهمَ، المهـم أن نفهم هذه (السياسـة) وأهدافها ووسـائلها.

لقـد عرفت الجزائر شـيئًا منها على شـكل ضغوطات خارجيـة، ومحاولات زعزعـة الصـف الداخـلي ووحدتـه، وليـس مثـال (زهـوان) مجـرد حادثـة، حصلـت في لعبـة آلهـة الأولمـب، بل هـو (قضية) أمسـك الملـف زمـام أمورها.

لم تنجح!.. جيد، لكن بالإمكان المتابعة بحلول أخرى.

وكأن الملـف يسـتطيع أن يُعطـي حلـولًا أخـرى. مـاذا أقول؟ إنـه يعطيها الآن.

هنـاك إذن حقيقة تفرض نفسـها: لابد من سياسـة يقظـة، في بلد كالجزائر من واجبه حماية نفسـه مـن المفاجآت.

مـن هنـا في الواقـع تبدأ مشـكلتنا. قد يكون سـهلًا بعض الـشيء أن نُقدِّر الوسـائل ونُحـدِّد العـدو، بالرغـم مـن أن هـذا ليـس أكيـدًا دائـمًا.. ولكن أن نقـوم بتقديـر وسـائلنا الخاصـة، فهذا أمـر أصعب.

ذلـك لأن هـذ التقدير يتـم انطلاقًا من بـض الثوابت في ذهننا، التـي قد تُخفي

لنـا العيب في الـدرع، أكان الأمر يتعلق بالسياسـة أو الاقتصاد أو حتى الأدب.

إلا أن جهـاز المراقبـة عندنـا – أعنـي في بنيتنا الذهنية الحاليـة – مصاب في هـذا المجـال بنقـص نتقاسـمه مع سـائر الـدول الإسـلامية؛ لأننـا، وإياهم في مرحلـة مـن مراحل الانعطـاف في تطورنـا النفسي.

ولابـد مـن الاعـتراف بـأن فكرنـا في هـذا المنعطـف يميـل إلى إصـدار أحـكام كميـة؛ فالميـل إلى التضخيـم يغلـب عـلى أحكامنـا.

وبطريقـة أكثـر دقـة، يجـب أن نعترف بـأن فكرنـا – أي الفكر الإسـلامي عامـة في القـرن العشريـن – يعيبـه خطـأ في المقاييـس: نحـن نميـل إلى المبالغة في تقديـر نتائـج (الأسـباب الكـبرى) وإلى الانتقـاص مـن نتائـج (الأسـباب الصغـرى)، بـل وإهمالها.

إذا وُضِـعَ أمـام أعيننـا فجـأة قنبلـة ذريـة وحبة رمل، فـإن أصابعنـا تتجه ولا شـك إلى القنبلـة الذريـة وتَـرِدُ إلى أذهاننـا الفكرة نفسـها: هذا هو سـلاح عدونا.

ولكـن مصـدق لم يُحطَّـم بقنبلـة ذرية، بل ببضعـة حبات مـن الرمل كانت في راحة يـد (دالس).

إذن لا نحتـاج لبـذل أي مجهـود تربـوي، في سـبيل إقناعنـا بنتائـج القنبلة الذريـة؛ فميلنـا إلى التضخيـم يحملنـا بالطبـع إلى المبالغـة في تقديرها.

أمـا فيـما يختـص بإقناعنا بتأثـير حبة الرمـل، فيجـب القيام ببرنامـج تربية كامـل: مـن سـيُعلِّمُنا أن الانـزلاق بقـشرة موزة وضعـت بمهـارة تحت رجل شـعب مـا أشـد خطـرًا مـن رؤيـة قنبلـة ذريـة تنفجـر فوق رأسـه، كـما جرى للشـعب الياباني؟

إن ذهننـا يجمَـح أمـام الأحـكام ذات البعـد الميكروسـكوبي؛ ولابـد أن

نضيف هنا، أن هذا الأمر لا يتفرَّد به الفكر الإسلامي. فالطبيب الألماني (كوخ) قاد صراعًا امتدَّ سنوات طويلة في القرن الماضي؛ ليجعل جامعة برلين تقبل بوجود ميكروب السل.

ورغم ذلك، نحن نعلم مدى الضرر الذي يقوم به اليوم هذا الكائن الصغير في جسم الإنسان، وعلى الأخص بين الطبقات العاملة في المدن الصناعية، ولم يتعلم الهولنديون تقدير فظاعة الأضرار التي تُحدِثها الكائنات الصغيرة إلا بعد أن حلت بهم كارثة وطنية، عندما أتلف نوع من عثث الغابات جهازهم الدفاعي المنيع في الأراضي التي استصلحوها من البحر.

إذا كان إصبعنا يشير بشكل آلي إلى القنبلة الذرية، وإذا كان بصرنا لا يدرك حتى حبة الرمل؛ فهذا أمر بشري.

ولكن، هل علينا أن نبقى هكذا؟

إن ما يُخيف على الأخص من عمل الاستعمار هو المستوى الميكروسكوبي؛ إذ يجب أن نخشاه حين يستعمل حبة الرمل أكثر مما نخشاه حين يستعمل القنبلة الذرية؛ لأن عمله حينئذٍ يُفلِت تمامًا من إطار مراقبتنا.

إن عمله حين يصبح صامتًا، وخافتًا، وغامضًا، حينئذٍ تكون نتائجه أكبر؛ لأنه يكون قد طغى على تيقظنا وجهاز دفاعاتنا على حين غِرَّة.

إن الجسد الاجتماعي أشد عرضة لنتائج هذا العمل، مثلما يكون جسد الطفل أشد عرضة للتأثر بالميكروبات، لأنه لم يكتسب بعد المناعة الضرورية.

في الطب، ترتبط هذه الحالة بمقياسيْن، على المعالج أن يأخذهما بعين الاعتبار: التشخيص والعلاج، اكتشاف المرض وطريقة مداواته، وفي

عـلاج المجتمـع، هناك أيضـا مقياسـان: يجب معرفة الـداء، ثـم تحديد علاجه تحديـدًا دقيقًا.

في هـذه الآونـة، الـداء الـذي تجـدر الخشـية منـه في الجزائـر هـو تخريـب جهـاز الدولـة، وقـد واجهت روسـيا هذا الخطـر في الفترة الممتـدة بين 1927 - 1937م.

إنـه أسـوأ مـن الهجـوم العسـكري؛ لأنـه يسـمح بقضـم جهـاز الدولـة بصمـت وغمـوض إلى أن يسـقط أشـلاء، ودون أن تسـمع أذاننـا شـيئًا ممـا يجـري، ولا أن تـرى أعيننـا شـيئًا مـن هـذا العمـل.

ولـن ينتهـي هـذا العمل قبـل أن يتآكل جسـد المجتمـع، وتُدمَّـر نوابضه، وتختفـي مفاصله.

ولكـن العنـصر المسـبب للمرض في هـذا الميـدان - المخـرب - ينتمي إلى صنفـين: الصنـف الحاد (الفـيروسي) والصنـف الخامل.

فالمخـرب الحـاد هـو ذاك الـذي يعمـل مـن خـلال علاقاتـه مـع فئـات أخـرى مـن صنفـه، وبوعـي لأهـداف عمله: فهـو يعرف أنـه يُدمِّـر المجتمع، والدولـة، والنظـام. ولا تحتـاج ألبتـة للبحـث عنه بواسـطة مجسـم، بـل يكفي أن تفتـح نافذتـك، أو بصيرتـك، لكـي تـدرك ماهيـة عمله.

وبالإضافـة إلى ذلـك، مـن الممكـن أن يجهـل هـذا النـوعُ مـن الميكـروب الاجتماعـي الأعضـاء الآخريـن في عائلته المسـببة للمرض- وحتى هـذه تقنية ضروريـة عنـد أولئـك الذيـن يمسـكون بالملـف - ولكنـه لا يُمكـن أن يجهل طبيعـة عملـه، ولا الراتـب الـذي يتقاضاه مـن أجله.

إنـه يعلـم بشـكل عـام، أنـه يعمـل بنـاءً عـلى تصميـم وُضِـعَ في الخـارج في إطـار اسـتراتيجية كونيـة تُطبِّـق سـائر وسـائل العمـل الميكروسـكوبي، في

الأماكـن التـي يكون اسـتعمال القنبلـة الذرية فيها غـير ضروري أو غير ممكن.

أمـا الميكـروب الآخـر – المخـرِّب الخامل – فإنـه ذلك الشـخص الطيب المتسـامح، الـذي وجـد نفسـه منقـادًا في حركة لا يسـتطيع السـير فيهـا، يزرع فيهـا الخلـل بخموله، ويعيـق فيها منهـاج النشـاط العام.

هكـذا، وبفضـل خمولـه، يتقهقر تِـرامُ البلـد، في حـين أن تِرامَ الاسـتعمار يتقـدم باسـتمرار إلى الأمـام، بالإضافـة إلى ذلـك، قـد يكـون هـذا الميكروب مـضرًّا بطريقـة أخـرى؛ أي عندمـا يضيـف إلى خمولـه شـيئًا مـن اللاأخلاقية، قـد يـؤدي عمله بذلـك إلى النتيجـة ذاتهـا، التي وصـل إليها عمـل الميكروب الحـاد؛ أي تدمـير الدولـة، وتفتيـت المجتمـع، رغـم أنهـما لا يملـكان الهـدف ذاتـه بشـكل واعٍ.. ذلك هـو جملة التشـخيص الذي يلائـم بلدًا مثـل الجزائر، اسـتعاد حريتـه مُنـذ زمـن قصير.

والآن، مـا العـلاج المناسـب لمثل هـذه الحالة؟ مـن الواضح أنـه لا بد من القيـام ببعـض التمييز عـلى الصعيـد الأخلاقي: فالميكـروب الحاد يُعَـدُّ خائنًا، والميكـروب الخامـل يعد عاجـزًا، أو في الأكثـر غير شريف.

أمـا مـن المنظـور العمـلي فـلا يوجـد أي فـارق بينهـما: تكـون الأسـباب واحـدة بنتائجهـا؛ فالميكروبـان يُدمِّـران الجسـد الاجتماعـي سـوية.

ولا بـد من الأخـذ بعين الاعتبار، أن الجسـد الـذي يتلقى نتائـج عملهما، لا يقـوم، ولا يسـتطيع أن يقـوم بأي تمييز.

ولنفـترض أن هنـاك مواطنًـا أمام نافـذة إحـدى الإدارات.. إنه يسـتطيع أن يعـي العسـف أو الابتـزاز الـذي يصيبـه مـن قبـل الموظـف القابـع أمامه، ولكـن عمليًّا، وفي سـيرورة التفكـير التي تحصـل في داخله، لا يَجِدُ نفسـه أمام شـخص (عامـل أم موظـف)، بـل أمام نظـام، أمـام دولة.

كل ردات فعله الدفينة، وكل الكلمات التي يمسكها على شفتيه – وهو يزدرد ريقه – موجهة ضد النظام وضد الدول، فهو لا يستطيع أن يقوم بالتمييز بين الميكروب الحاد والميكروب الخامل.

والمسألة لا تلامس حتى ذهنه؛ لذلك، لابد للعلاج الاجتماعي من أن يكون شاملًا؛ لأن عليه أن يُجابِهَ فعلًا مرضًا شاملًا، أي أوضاعًا تُؤدِّي فيها أسباب مرضية مختلفة إلى النتائج ذاتها.

وعلى المعالج الاجتماعي أن يتبنى تجاه الأخطار التي تهدد المجتمع موقفًا عمليًّا يحكم على الأسباب من خلال نتائجها، وعلى الشجرة من خلال ثمارها.

زد على ذلك، أنه يجب على المعالجة الاجتماعية، في نقطة محددة، أن تستوحي خبرتها العلمية من المعالجة الطبية؛ ففي الطب، عندنا يُكتشَف في الكلية ميكروب ما لا يُطرَد منها ليوضع في الرئة.

فالطب يعمل على طرد الميكروب من الجسم كله، والعمل بغير ذلك تجاه الميكروبات يعد ضربًا من الهرطقة، ولا تقول من الغباء التام، ومن المؤكد أن يكون الميكروب في الإطار الاجتماعي رجلًا يُخالف قاعدة، أو واجبًا، ولكنه رغم كل هذا كائن بشري.

ولا يمكن أن نُخضِعَه ببساطة لمفعول مضاد الحيويات.

عندها تجد المعالجة الاجتماعية نفسها بين حديْن، أو بين شرطيْن: يترتب عليها، من جهة، أن تطرد الميكروب من الجسد الاجتماعي، ومن جهة أخري، أن تُبقِيَ في الإنسان ما بقي فيه من إنسانية.

ولكن، مهما تكن الاعتبارات البشرية التي يجب أن يُعتَدَّ بها، يبقى هناك ضرورة ملحة هي: يجب التخلص من المرض، وعلى الأخص في بلد فتيٍّ لا

يملـك المدخـرات الحيويـة التـي يمكـن أن تحميه آليًّا مـن محـاولات التفتيت، ومـن المؤكَّـد أن كل مخالفـة إدارية لا تَلقَى عقوبة الاسـتنكار الرسـمي، تصبح جرحًـا مُتقيِّحًا، ينزف في الجسـد الاجتماعي.

ويمكـن الآن أن نطرح حلًّا وسـطًا يجنبنا التطـرف، وهو أن نضع الموظف أو العامـل الـذي يُقـصِّر في أداء واجبه وجهًـا لوجه أمام خطئـه ونتائج خطئه، وذلك أمـام الجمهور.

وفي النهايـة، يجـب أن نذكـر أن حبـة الرمـل تكـون، فعـلًا أشـد أسـلحة الاسـتعمار فتـكًا؛ فهـو يسـمح لأولئك الذيـن يعملون عـلى الملـف العالمي أن يشـلوا الجهـاز الإداري، وأن يعيقـوا حركتـه، وبالتـالي أن يقتلـوا الدولـة.

تلـك هي التقنية التي اسـتطاع بـدوي عربي معـاصر أن يُلخِّصها للورنس بكلمة واحدة:

– يا لله! هؤلاء الإنجليز يعرفون كيف يحفرون بئرًا بواسطة دبوس!

صحافة العالم الثالث[1]

قد يفكر أحدنا بوضع لائحة بالصفات التي تُوسَم بها، وفقًا للزاوية التي يُحكم منها على الأشياء، الصحفُ المختلفة التي تقرؤها، أو التي نرميها في سلة المهملات، ومن الجميل أن نراهن - رغم ذلك - على أننا إذا قمنا بهذا الإحصاء سننسى واحدة على الأقل من هذه الصفات.

وبالطبع يعرف المرء أنه توجد صحيفة (اليمين) وصحيفة (اليسار)، والصحيفة (التقدمية)، و(الرجعية)، و(الناقدة)، و(الرديئة)، وما أدري، ولكن يجب الاحتفاظ بمكان خاص للصحيفة التي تدَّعي أنها - أو التي يحاول بعضهم في الواقع أن يضعها - في رأس الصحافة الوطنية لبلد من بلدان العالم الثالث.

لماذا نعير هنا مثل هذه الصحيفة اهتمامًا أكبر؟ إنها قضية تجربة، بعد أن عشنا في بلد تتدخَّل - أو أدخلت- الصحافة فيه في كل الأحداث البارزة التي طبعت تاريخ بلادنا منذ عدة عقود من الزمن؛ بما فيها الثورة والاستقلال الذي تبعها.

والواقع أنه علينا أن نعود إلى أبعد من هذا الزمن، إذا أردنا أن نؤكِّد على هذا الوجه الفريد للصحافة التي يقال: إنها طليعية في بلدان العالم الثالث، إنها في بادئ الأمر مسألة الصحافة بذاتها، تلك الصحافة التي يقال: إنها السلطة الثالثة أو الرابعة.

إنها فعلًا سلطة، ذلك أن الصحيفة إذ تُحوِّل الرأي العام في هذا الاتجاه

(1) "la presse du tiers nonde ,"pevolution Africaine ,no , 135, 28 aout 1965.

أو ذاك، تصبح أداة سلطة ذات أهمية كبري، في عالم، عالم القرن العشرين، يسير كل ما فيه على مبدأ القوة والسيطرة.

القوة! السيطرة!

كلمات سحرية، كلمات أخَّاذة! لكل أولئك الذين تحركهم ثقافة الإمبراطوريات، ولنكن أكثر فهمًا: هل تتذكرون تجربة بافلوف الشهيرة: تعرض على الكلب قطعة من السكر، فيتلمظ لرؤيتها، ويفرز ريقًا، ويسيل لعابه بغزارة من شفتيه.

إن الصحيفة – من حيث هي أداة سيطرة – تُسيل بشكل عام لعاب كل حاملي لواء ثقافة الإمبراطوريات.

وهذا طبيعي، الآن يمكننا أن نفهم ما يمكن أن يكون أثر تسييل اللعاب هذا على تكوين وعلى توجيه الصحافة الوطنية في بلد من العالم الثالث، نال استقلاله.

لقد نَسَف هذا البلد الأغلال (الأقفال) التي كانت تُقيِّد أعضاءه تقييدًا شبه جسدي، وهذا يعني أنه لم يعد بالإمكان أن يُوجَّه في الاتجاه المطلوب بواسطة الشرطي الرقيب.

لكل وضع جديد هناك وسيلة جديدة عندها، بدلًا من الأغلال التي تُشَدُّ على الأعضاء، حاولوا وضع أغلال أخرى حول الأفكار.

يمكن للصحيفة أن تكون هذه الأغلال في بلد من بلدان العالم الثالث، لا يُراد للأفكار فيه أن تذهب في هذا الاتجاه أو ذاك، من الواضح أنه يجب في هذه الحالة أن تكون الأغلال من النوع الجيد، ألَّا تكون خرقة (من البلد)، وتتركز كل حنكة هذه الحرب (الأيديولوجية) في وضع الصحيفة الموكَّلة بهذه المهمة في ظروف أفضل من ظروف الصحيفة المحلية؛ حتى

من حيث نوعية الورق.

ولكن هذا الأمر يعود إلى زمن قديم، لقد لُوحِظ فيما مضى، منذُ أربعين سنة تقريبًا، القرابة التي لم يكن معترفًا بها بالطبع، بين جريدة كبيرة قاهرة، وأخرى باريسية، على الرغم من أن إحداهما كانت تُقدِّم في أعمدتها مواضيع استعمارية، في حين تُقدِّم الأخرى في أعمدتها مواضيع بالطبع ضد الاستعمار.

الحيلة إذن ليست جديدة، والحرب الأيديولوجية ليست بنت يومها في بلدان العالم الثالث.

بالطبع لا ينبغي على تقني الصراع الأيديولوجي أن يقدموا فقط الورق ذا النوعية الجيدة؛ ليضمنوا نجاح الصحيفة (التقدمية) في بلد من بلدان العالم الثالث، بل تُعطَى كذلك نصوصًا نثرية غاية في الرشاقة، تظهر على أعمدتها مهمورة بتوقيع واحد، مثل أحمد بن كبير، أي أحد أولئك الذين كان يُطلَق عليهم في هذا البلد منذ عشر سنين فقط اسم (الخادم ابن البلد).

ومن الطبيعي أنه إذا كان الورق يصل ويسلم في وضح النهار وبالسبل الطبيعية، فإن النصوص النثرية على النقيض من ذلك، تصل خفية بواسطة قنوات سرية إلى الصحيفة التي تحمل رسالة قيادة البلد، الذي ينتمي إلى العالم الثالث في طريق التقدم والتقدمية.

وبالطبع من السهل ملاحظة أن أحمد بن كبير هذا الذي يُقدِّم لوطنه هذه البضاعة مهمورة بتوقيعه، لا يعرف دائمًا تمام المعرفة نوعية البضاعة التي يُطلَب منه تسليمها.

ولقد وجدْتُ مرة أخرى البرهان على ذلك، لدى قراءتي لمقال حول اليمين، نُشِر في إحدى الصحف منذ عدة أسابيع، كان من الواضح أن الـ

(بـن كبـير) الذي ذيـل هذا المقـال بتوقيعـه، لم يكن يعـرف تاريخ اليمـن.. إنه يبـدأ جيـدًا عرضه كمتخصـص بتاريخ بلاد بلقيـس في المرحلـة المعاصرة؛ أي منـذ تأسـيس (الإمامـة) في منتصـف القرن السـادس عشر، ثم يأتي التسلسـل الزمنـي موسـعًا بطريقة طبيعيـة ومحكمة.

وفجـأة، وعنـد اللحظة الحاسـمة التي يدخل فيهـا اليمن مرحلـة الثورة، ينكـسر الـشرح، ويجـد القـارئ نفسـه بغتـة محمـولًا بعصًـا سـحرية إلى الثاني والعشريـن مـن أيلـول سـنة 1962م، وهو تاريخ ثـورة عبد الله السـلال، غير أن القـارئ الـذي يعـرف بعـض الـشيء عـن اليمـن، يتذكر جيـدًا أن شـيئًا ما قد جرى سـنة 1948م في صنعاء، عندما أزاح شـخص يُدعَـى عبد الله الوزير الإمـام يحيي، وأقـام نظامًـا جمهوريًّا؛ وقد سـاعده في ذلك مستشـار جزائري، هـو الورتيـلاني، الذي تُـوفِّي في تركيـا منذ ثلاث سـنوات.

عندمـا يقـف القارئ أمام سـؤال يطرق ذهنـه: لماذا اختفـت الحلقة الأولى مـن تاريـخ الثـورة اليمنيـة ضمـن تسلسـل زمنـي موسـع جـدًّا ودقيـق جدًّا تنـاول الأحـداث فيـما عداها؟

مـن الطبيعـي أن يصل القـارئ إلى نتيجـة، أن الـــ (أحمد بـن كبير) الذي وقَّـع في أسـفل هـذا المقال ليـس هو فعـلًا كاتبـه، أو أن قلمه مُسـيَّرٌ مـن بعد؛ فالتاريـخ لا تختفـي صفحة منه دون سـبب.

هنـاك مثـال جيـد، يكفـي للدلالـة عـلى الأسـباب الخفيـة، والأهـداف الغامضـة، لتلـك الصحافـة التـي بـرزت في بلـدان العـالم التـي اسـتردت اسـتقلالها، وللجزائـر بالطبـع حصتهـا في هـذا الميـدان، (الثـورة الإفريقيـة) اسـتبدلت لتوهـا مديرهـا، قـد يقال: إن هـذا تافه، ولكنـه يطرح أمـام الإدارة الجديـدة عـددًا مـن المسـائل، عليهـا أن تُحلَّهـا على الفـور لكي تتجنـب الخلل

في حياة صحيفتها، وليست أقلَّها المسائلُ ذات البعد النفسي.

والواقع أننا نستطيع أن نفخر، بأننا بتنا نبدو أسيادًا في الصحافة؛ وأننا لا نعرف أن نكون في البداية مجرد تلامذة (متدرِّجين).

أضف إلى ذلك أن بلدان العالم الثالث ليست الوحيدة التي عليها أن تتحرر من مثل هذه العقدة، للسير خطوة إلى الأمام في طريق التطور. ففي بداية القرن الثامن عشر قضى بطرس الأكبر حياته كلها؛ لكي يُعلِّم الشعب الروسي أن يصبح تلميذا (متدرِّجًا) لدى حضارة أخرى، وهو بذاته قيصر كل روسيا، تدرَّب على يد نجار سفن، وعلى يد حدَّاد هولندا، لكي يُعطي فيما بعد لبلاده أول أسطول وطني له.

ولكن، كم كانت تبدو مضحكة أولى المدافع وأولى السفن الشراعية، التي بُنِيَت تحت إدارة بطرس الأكبر الشخصية، بالمقارنة مع مدافع سفن معاصره وغريمه (شارل) ملك السويد، إلا أن بطرس الأكبر عرف كيف يُخضع غرور بلاده وكسلها لإكراه رسالة كبرى.

إن بلادنا والميدان الذي أخص به هذه السطور، ليسا على ما يبدو على مستوى المثال الذي اخترته، لكن الأمثلة لا تكون بناءة بمقاييسها، بل بمدلولاتها.

كي نتغلب على العناصر، يجب أولًا أن نتغلب على أنفسنا.

وإذا كنا نريد صحفيين موهوبين، وصحافة تتبوأ مركزها في عداد الصحافة العالمية الكبرى، يجب علينا أن نكون في البداية مجرد صحفيين مُتدرِّبين.

العبرة من جريمة[1]

هكـذا، يُقـدِّم لنـا (متعـدد الأطـراف) هـذه المـرة أيضًـا الدليـل القـاسي عـلى وجـوده – عـلى الأقـل – لأولئـك الذيـن كانـوا لا يزالون يحتاجـون لهذا الدليـل؛ أي تقريبًـا عـلى طريقة الشـيطان (مفيسـتو) في مسرحيـة جوته، الذي ينـادي (فاوسـت) قائـلًا: هـا أنا ذا.

الواقـع أننـي تحدثت عنـه في مقالي مـا قبل الأخـير، وقد شـدَّدْتُ فيه على الأخـص عـلى (أطرافـه المحليـة) في بلـدان العـالم الثالـث، ولا بـد مـن لمحـة بسـيطة عن رأسـه.

إن العمـل الإجرامـي الـذي تعـرض له للتـو رئيـس مجلس الثـورة ونجا منـه بأعجوبـة خارقـة، إنـما هو بالفعـل من صنـع قاتـل يلبس ثـوب فرقة من الفـرق المحلية.

ويجـدر بنـا – فيما يتعلـق بموضوع الفـرق – أن نُبيِّن فقط أنهـا لا تُعبِّر عن أي شـكل مـن أشـكال المعارضـة السياسـية، إنهـا ببسـاطة أشـكال مختلفة من الخيانـة بالمعنـى الأكثر خسـة والأكثر خزيًـا للكلمة.

ويبقـى إذن أن العمـل الإجرامي هـو – من الناحية الأخلاقية والسياسـية والتقنيـة – مـن فعـل (مُتعدِّد الأطـراف): إنه فكـرة انبثقت من رأسـه، ويجب علينـا إذن أن نقـول كلمة عن هـذه الفكرة.

ويفـرض علينا الظرف الحـالي بالتالي، أن نقول بضـع كلمات عن مضمون هـذه الفكـرة؛ فهـذا يجعلنـا نعي وعيًـا أفضـل معنى العمـل الإجرامـي الذي

(1) "la lcon dl un crime "Revolution africaine, no 272, semaine du 2 au 8 mai 1968.

حدث أمسِ الأول.

لكي نعطي صورة ولو كانت موجزة عن هذه الفكرة الشيطانية، يتوجب علينا أن نتخيل صيغة تستوعب مبادئ الدستور الاستعماري من جهة، وبروتوكولات حكماء صهيون، من جهة أخرى.

وهي ستكون الصيغة السحرية التي ستعرف إلى حد ما محتواها الثنائي، وهذا ما سيسمح لنا من خلال المادية البسيطة للعمل الإجرامي أن ندرك نواياها على ما هي عليه من تعقيد.

إن كل جريمة تصنف وفق هذا المعيار - وبالنسبة للمحكمة مثلًا - تكون الجريمة مُتعمَّدة أو غير متعمدة بناءً على النية التي كانت وراءها، وفي مجال السياسة ليس هناك من وجود لجرائم غير متعمدة، إنها تكون دائمًا متعمدة، وفي جريمة أمس الأول: كان اختيار الظروف الوطنية واختيار الهدف كافيَيْن لإثبات ذلك، ولابد أن نضيف في الحال أننا نحن أنفسنا ليس لدينا عن هذه الظروف سوى معلومات جزئية.

ولا بد أن (متعدد الأطراف) يعرف بالتأكيد أكثر مما نعرف، هذا أمر بديهي على الصعيد الدولي، أما على الصعيد الوطني نفسه، فإنه يعرف كذلك الشيء الكثير، وذلك بفضل شبكة الأطراف التي تُشكِّل في البلد مناطق مراقبة لا نعي تمام الوعي حقيقتها ولا مدى انتشارها. إنني متأكد من ذلك منذ أكثر من أربع سنوات.

ومهما يكن من أمر، ورغم أن معلوماتنا جزئية، فإنه باستطاعتنا أن ندرك - ولو جزئيًّا، الدوافع التي أدت فجأة بمتعدد الأطراف إلى الضغط لتعجيل الأمور ومباشرة الاعتداء، الذي فشل لحسن الحظ.

إننا نترك جانبًا - مراعاةً للمنهجية - الاعتبارات الخاصة بالوضع

الـدولي، فالوضـع الوطني – كما يبـدو لنا – هو الذي دفـع إلى كل هذه العجلة.

باسـتهدافهم رئيـس مجلـس الثورة يسـتهدفون دون شـك وبصـورة عامة مكاسـب هذه الثورة، إنهم يسـتهدفون عـلى الأخص القـرارات التي صدرت مؤخـرًا، ونحـن واثقـون من أنهـم يسـتهدفون أيضا القـرارات التـي كانت ما تـزال قيـد الـدرس، والتي لا نملـك نحن أنفسـنا أية فكـرة عنها.

باختصـار وبشـكل إجمـالي، كان الهـدف مبـدأ التطهـير الـذي بـدأ يـرى النـور، كان الهـدف كبـح هـذا المسـار، هـذا هـو المعنـى السـياسي للاعتـداء، وهـذا مـا يُفسِّـر العجلـة في التنفيـذ والهـدف الـذي اختـاروه، لمـاذا العجلة؟ لكيـلا يُعطَـى التطهـير الوقت الـكافي للوصـول إلى نتائجه التي يخافـون منها.

ولمـاذا اختيـار هـذا الهـدف؟ لأن نتائـج التطهـير لا يمكن الوصـول إليها إلا بدفـع مـن صاحـب هـذه القـرارات التـي كان يحملهـا، وهذا ما يتناسـب مع الدسـتور الاسـتعماري ومـع بروتوكولات حكـماء صهيون؛ ففـي المرحلة الاسـتعمارية كان (متعـدد الأطـراف) يحكـم الشـعوب المسـتعمرة بأسـاليب قاسـية ليـس مـن الـضروري أن نذكرهـا هاهنـا، أمـا في مرحلـة التحـرر مـن الاسـتعمار فـإن متعدد الأطـراف غير أسـاليبه، إنه يريـد أن يُبقيَ الاسـتقلال، الـذي دفـع ثمنـه غاليًا والـذي أُعطـيَ للبلد اسـميًّا في فـوضى دائمـة، تُغذِّيها وسـائل مدروسـة من الفسـاد وتحافظ عليها حكومـات من الدُّمَـى المتحركة.

تلـك هـي القاعـدة، ولكن قـد ترغب دولـة مـا، أو حكومـة، في الخروج عـلى هـذه القاعـدة، وبالتحديـد بـأن تأخـذ الخطـوات اللازمـة ضـد عـدم الفاعليـة، وانعـدام المسـؤولية، بـل وضـد التخريـب والخيانة، وقـد وُضعَا في مراكـز أساسـية من القيـادة..

عندهـا، ليـس هناك من مجـال لتضييع أيـة دقيقة، يغير (متعـدد الأطراف)

أسلوبه، يحرك الأيادي التي تتولى الانقلابات، أو الانفصالات، مثلما جرى في الكونغو وفي بيافرا.

وإذا أراد بلد ما أن يتخلص من حال الفوضى الخاملة والراكدة والمتوانية التي يجد نفسه فيها، فإنه ما يلبث أن يقع في حال من الفوضى العنيفة، لقد كاد بلدنا أمسِ الأول أن يجد نفسه منزلقًا في مثل هذه الحال، وقد شاء الله أن يجنب الشَعب الجزائري هذه المحنة الدامية.

ومرة أخرى، تتحقق الآية الكريمة: {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ}

ذلك أنه لدينا ما يكفي من التجارب مع الطرق المدروسة جيدًا لمتعدد الأطراف كي نتصور أنه لم يترك أي تفصيل للصدفة في التحضير للجريمة، قبل أن يُوكِل أمر تنفيذها إلى فدائي خائن، وحتى الظروف النفسية، أُخِذَت بعين الاعتبار في التخطيط لتوقيت الجريمة.

وحتى الطفل (أو الذي يدعي بأنه طفل) الذي أوقف الموكب الرسمي، قُدِّرَ له أن يكون من بين هذه الظروف؛ لكي يجعل الهدف أقرب منالًا، قد يكون هذا الطفل (هذا إذا كان طفلًا) بريئًا من الدور المشؤوم الذي أُعطِيَ له، ولكن إدخاله في مخطط الاعتداء يتم عن تفكير مُنظَّم تنظيمًا عاليًا، وعن تقنية عالية جدًّا في التحضير للجرائم من هذا النوع، هيا.. ليس هذا نتاج تفكير طرف واحد من (متعدد الأطراف) ولا من كل الأطراف.

إننا نجهل بالتأكيد، ولِنَقْصٍ في المعلومات، تفاصيل أخرى تدل بدقة على الفاعل الحقيقي، كان يجب على عملية الاعتداء أن تنجح مئة في المئة؛ فكل احتمالات الفشل كانت، ويجب أن تكون، قد استبعدت مسبقًا؛ لأن العقل الذي دبر كل التفاصيل ونظمها كان يعرف تمام المعرفة النتائج

المترتبـة على الفشـل.

في الأصـل، كانـت الجريمـة تبغي منـع البلد، ومنـع أي مسـؤول فيه، من إمكانيـة إلقـاء نظرة عـلى وضع يعيش فيـه (متعـدد الأطراف) مثل (السـمكة في المـاء)، كـما تقـول العبارة الشـهيرة، وكذلـك منعه حتـى من إمكانيـة إعادة النظـر في الظـروف التـي خلقـت في البلد – أو عـلى الأقـل في العاصمة – هذه الأوضـاع التـي يـبرز فيها يومًا مـا القاتلـون الخونة.

عـلى الصعيـد السـياسي، فـإن الأمـر يتعلـق بالدفـاع عـن هـذه الظروف ضـد كل محـاولات التغيـير، عندهـا يحصـل الاعتـداء.

أمـا عـلى صعيـد الأفـكار، فالأمـر يتعلـق بمنـع كل محاولـة لفحـص، أو تحليـل، أو شرح هـذه الظـروف، وعـلى هـذا الصعيـد هـي الاعتـداء؛ ليكون تأثـيره بمثابـة تخويـف للناس.

لم يكـن احتـمال الفشـل إذن مقبـولًا في التخطيـط الـذي كان يهـدف إلى المحافظـة عـلى الوضـع السـابق مهما كلـف الأمر؛ لأن نتائج الفشـل سـتكون أشـد خطـورة؛ لكونـه سـيجعل السـلطة السياسـية تأخـذ حذرهـا في جميـع الميادين، وسـيكون بمقـدور الجهـد الفكـري أن يقـوم بمهمتـه عـلى أحسـن وجـه انطلاقًـا مـن معطيـات لا يمكـن نسـبتها ألبتـة إلى الخيـال.

هـذا هـو الشـكل الجديـد للمشـكلة عنـد (متعـدد الأطـراف)، وعندنـا نحـن؟ مـن البديهـي أننـا لا نـزال في الوضع الـذي انفجـرت فيه المأسـاة، إن الظـروف التـي ولدتـه لم تُوقِفْها، بضربة سـاحر، تلـك الرشـقات التي كادت أن تُغـرِق البلـد في فـوضى دامية.

بالنسـبة لمتعـدد الأطـراف، كـما بالنسـبة لنـا نحـن، لا يـزال الوضـع إذن قائـمًا عـلى مـا كان عليـه، وواجبنـا الوطنـي يُحتِّـم علينـا أن نفكـر بذلـك.

ومـن البديهـي أن متعـدد الأطـراف لم يضـع فقـط خطـة التنفيـذ المـادي للاعتـداء، عَلَّنَـا نفـترض أنـه فكَّـر كذلك بوضـع خطة اسـتغلاله السـياسي.

إذن، يُفـتَرَض علينـا أن نفكـر أنـه، بالإضافـة إلى القتلة المأجوريـن الذين كانـوا موجوديـن في مـكان الاعتـداء، كان يوجـد هنـاك قاتـل سـياسي ينتظر الإشـارة ليبـدأ عملـه، هنـا بالـذات، في الجزائر.

هـذا الجهاز الأخير هو الـذي يجب، بنظري، أن نتفحصـه عن كثب؛ لكي نعيـد تقويمنـا للوضـع السـابق، وكذلك لكي نتخـذ الاحتياطـات اللازمة في الظـروف القادمـة، أي فيـما يتعلق بمشـاريع (متعدد الأطـراف)، ولكنَّ هاتين الحالتـين مرتبطتـان: لا يمكـن لنـا أن نتخذ احتياطاتنـا في المسـتقبل إذا لم نكن نعـرف معرفة تامـة ظروف الأوضـاع الماضية.

لدينـا ولا شـك مـن المعلومـات حـول بيتنـا نحـن أقل ممـا لـدى (متعدد الأطـراف)؛ فبالنسـبة لـه، بيتنا مـن زجاج، ولا يخفـى عليه أي أمـر فيه، هناك أمـور عديـدة تجعلنـا نؤمـن بذلك، وخاصـة منذ وقـوع الاعتداء الغاشـم.

إلا أننـا نعـرف أمـرًا محـددًا بدقـة: وهـو أن بيتنـا يحتـاج بجديـة إلى إعادة ترتيبه.

وفي كل الأحوال، يجب أولًا التفكير بالإعداد للحاضر.

في الوقـت الحـاضر، هناك قبل أي شيء آخـر، ضرورة الوصول بالتحقيق إلى نتائـج جيـدة، ليـس علينـا بالطبـع أن نُعطِـيَ النصائـح للمحقِّقـين في هذا المجـال، جل مـا نبغيه هـو التعبـير عن أمنية بسـيطة.

إننا نتمنى ألَّا تطغى الوقائع المادية وحدها على مسار التحقيق.

يجـب بالتأكيـد إزالـة القاتـل الـذي نفـذ المخطط بسـلاحه، مهـما كان الأمر، لقـد كان الجمهور نفسـه قـادرًا على ذلك لـو أن الأمور وضحت له بشـكل جيد.

إننـا نعـرف أنه يجب عـلى كل تحقيق أن يُبقِـيَ سرًّا الأمورَ التي تسـاعده في عملـه، أمـا الأمـور التـي يمكـن أن تخدم المجرمـين بإبقائهـم في الكتـمان، فإن مـن الواجـب، على العكـس من ذلك، إشـاعتها بـين الناس.

ومهـما يكن مـن أمر، فـإن الوضـع لا يتعلَّق في هـذا الحالة بمجـرد وقائع ماديـة بسـيطة، كـما هـو الوضـع في الحـالات العاديـة، ولكـن في الظـروف الدوليـة الراهنـة: لا يمكـن للتحقيـق - وللأسـف - أن يطـال (متعـدد الأطـراف) نفسـه، إلا أننـا نسـتطيع أن نطال أطرافـه. هناك قاتل مسـلح، هذا أمـر طبيعـيٌّ، ولكـنْ هنـاك أيضًـا وبالتأكيـد قتلة سياسـيون.

الفهرس

1. مسرد الآيات القرآنية

سورة الأنفال (8)

الآية	رقم الآية	الصفحة
{وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ}	30	

2. مسرد الأعلام (الأشخاص والدول والأمكنة)

- أ -

آلهة الأولمب	108	ألمانيا	41 – 52 – 68
إبليس	103	ألمانيا الإمبراطورية	24
ابن تومرت	58	أمانويل مونييه	86
الاتحاد السوفييتي	30 – 34 – 68	الإمبراطوريات	116
الأجنبي	27	إمبراطورية الشمس القديمة	84
أحمد بن كبير	117 – 118	أمريكا	68
الأدغال	46	الأنصار	97
الأدغال الإفريقية	97	إنجلترا	33
أديس أبابا	85	الإنجليز	114

84	آني بيسانت – الآنسة	29	أديسون
87	أوجين سو	104	أرامكو
61	أوربا	103	الأرض الإفريقية الآسيوية
70 – 71 – 72 – 73 – 74 – 75 – 76	إتيين دينيه – الرسام	21	الأرض الجزائرية
52	إيرهارت	17 – 21 – 41 – 46	أرض الوطن
71 – 72	إيزابيل إيبرهارت	78 – 85	الأزهري – الرئيس
	- ب -	66	(إسرائيل)
29 – 40 – 55 – 97	باريس	104	إسو
55	باسكال	34	أغادير
79 – 80 – 81 – 85	باندونج	48	أطراف العالم
102 – 116	بافلوف	81، 84	إفريقية
24	أودال	96	إفريقية الجنوبية
34	البحر المتوسط	94	إفريقية السوداء
37	براغ	34	إفريقية الشمالية
56 – 122	بيافرا	110	برلين
7	بيروت	37	بريجينيف
	- ت -	5	بسام بركة – الدكتور
70	تبسة	52	بسمارك

75	تبوك	61	بغداد
118	تركيا	119	بطرس الأكبر
25 – 24	تشومبي	84 – 69 – 68 – 67	بكين
29	تكساس	75	البلاد الإسلامية
86 – 61	توما الإكويني – القديس	13	البلاد الاشتراكية
75 – 34	تونس	117	بلاد بلقيس
63	تيبورماند	28	بلاد العالم الثالث
	- ج -	26 – 25	البلد
110	جامعة برلين	24	بلدان الشرق الأوسط
82	جامعة الجزائر	118	بلدان العالم
5	الجامعة اللبنانية	42 – 64 – 115 – 116 117 – 119 – 120	بلدان العالم الثالث
83	جان بول سارتر	42	البلدان النامية
65	جان روس	117	بلقيس
103	جان جابين	45	بن باديس
26 – 24	الجبهة	27	بن جوريون
96	جدة	69	بورتسودان

بوسعادة	71 – 72 – 73 – 75	الجزائر	5 – 6 – 14 – 21 – 32 – 33 – 34 – 35 – 38 – 51 – 56 – 57 – 60 – 66 – 69 – 71 – 75 – 81 – 88 – 89 – 90 – 93 – 108 – 111 – 112 – 118 – 124
بول رينو	67	جسر ألكسندر	74
بومارشيه	81	جلفا	75
بومباي	84	الجمهورية العربية	78
بو مدفع – مجلة	44	جنوب الجزائر	34
بو مدفع – سوق	11 – 12 – 14 – 15 – 18 – 20 – 21 – 26 – 51 – 56 – 59 – 87	جنوب الجزائري	34
الجنيد	46	رحمة بنت مالك بن نبي	5
جو – بريسونيار	60 – 61	رصيف السين	74
جونسون – الرئيس الأمريكي	66	رمال الصحراء العربية	97
جورا	74	روسيا	111 – 119
جيلسون	86	روسيا القياصرة	24

روما 24 – 67 – 82
رومان رولان 43
رئيس تحرير الأهرام 27
رئيس الدولة السوداني 78
- ز -
زولا 45
- س -
ستاندرد 104
سقراط 14 – 42
سوق أحرس 46
السوق العالمية 30
السويد 30 – 32 – 119
سيزار 82
سيناء 27 – 55 – 57 – 101
- ش -
شاخت – الدكتور 52 – 53
شارل – ملك السويد 119
الشرق 74 – 92
الشرق الأوسط 24
- ح -
حسنين هيكل 27
حقل الرميلة للنفط 39
- خ -
خالدي – الدكتور 12 – 14
- د -
دار الفكر بدمشق 5
دمشق 92
الدول الآسيوية 52
الدول الإسلامية 109
الدول الإفريقية 78
الدول الإفريقية الآسيوية 106 – 107
الدول الصناعية 65
دول العالم الثالث 36 – 102 – 104
الدول العربية 24 – 81
الدول المتخلفة 63 – 65
دول المعسكر الصناعي 68
الدول النامية 79
الدولة الجزائرية 77

24 شركات البترول
18 شريف بلقاسم
120 شكسبير
29 شوارع باريس
29 شوارع لندن
71 عين الصفرا
- غ -
64 – 84 – 85 غاندي
29 جرام البلجيكي
39 – 74 الغرب
555 الغزالي
52 جوته
34 غوطات الجريد
- ف -
008 فاطمي
37 فرصوفيا
66 – 75 – 86 – 88 فرنسا
120 فوست
70 دي كاسترز
68 الديمقراطيات الشعبية
70 – 74 دينية
- ر -
54 رابليه – الأب الروحي
44 – 45 – 46 – 48 الشيخ الأخضر
102 الشيطان
120 الشيطان مفيستو
- ص -
34 الصحراء الجزائرية
118 صنعاء
29 – 30 – 37 – 56 – 57 – 68 الصين
- ط -
81 طشقند
80 طه حسين
28 – 107 – 108 طهران
- ع -
12 – 24 – 106 العالم

عالم الاستعمار الجديد 65
العالم الإسلامي 6 – 7
العالم الثالث 15 – 25 – 37 – 42 – 63 – 65 – 66 – 67 – 68 – 78 – 81 – 82 – 83 – 85 – 90 – 101 – 106 – 107 – 115 – 116 – 117
العالم العربي 27 – 66
العالم المتطور 68
عبد الحق 74
عبد الله السلال 118
عبد الله العروي 14
عبد الله الوزير 118
عبد العزيز بن سعود 93
عبد القادر – الأمير 92
العراق 39
عمر مسقاوي 7
عنابة 46
- ك -
كابوا 24
فوستر دالس 107 – 108 – 109
فوشيه 88 – 89
فوكولد – الب 71 – 72
فون براون 52
فيتنام 55 – 56 – 59 – 64 – 101
- ق -
قابس 34
القارات الثلاث 67
القاهرة 66 – 78 – 80
قايد أحمد 19
قبر إتيين دينيه 60 – 73 – 75
قرطاجة 24
قرطبة 61
قسنطينة 43 – 51 – 53 – 56 – 57 – 58
قصر بوربون 74
قصر الشعب 39
محطة الجزائر 75
محطة الأدب 14

75	محمد ﷺ	34	كارا كوروم – صحراء
76	مدينة الصفائح	84	كالكوتا
75	مراكش	24	كامبانيا
43 – 42	مركز التوجيه الثقافي	24	كان
28 – 40 – 103 – 107 – 108 – 109	مصدق – محمد	74	كرونيه – الدكتور
60	مصر	74	كريستيان دوشرفيل
23	المطارات العربية	96 – 94	الكعبة
34	المغرب	110	كوخ – الطبيب الألماني
93	مقبرة العالية	122 – 103 – 56	الكونغو
76	منتجع دينية	- ل -	
97	المهاجرون	46	لالة الخضراء
44	مهنة	48	لسنام
18	المواطن الجزائري	29	لندن
34 – 37 – 66 – 67 – 68 – 69	موسكو	45	لورد – كاتدرائية
42	موسوي	114	لورنس
66	موشيه دايان	92	ليدن
87	ميترنيك	58 – 34	لينين
- ن -		- م -	
74	نابليون	13 – 11	ماركس

ماسبيرو 14
مالك بن نبي 16 – 7 – 6 – 5
ماو تسي تونج 58
متحف اللوفر 75
مجلس الشيوخ 24
مجلس الشيوخ القرطاجي 24
مجلس النواب في الولايات المتحدة الأمريكية 101
- هـ -
هاينز – لواء في البحرية الأمريكية 101
هيجل 13
هنيبعل 24
هنيبعل الصغير 66
الهند 84 – 63
هولندا 119
نابليون الثالث 92
نادي الصنوبر 26 – 17 – 11
نخبة العالم الثالث 90
نصر الدين دينيه 73
النموشي 41 – 36 – 27
نور الدين بو قروح 6
نيتشه 58
نيرفانا 104 – 103
نيودلهي 69
- و -
واشنطن 108
الورتيلاني 118
الولايات المتحدة الأمريكية 101
- ي -
يحيى – الإمام 118
اليمن 118 – 117

3. مسرد المذاهب والجماعات والشعوب

- أ -

52	الأمريكيون	20 – 23 – 60	الأجانب
58	الأنبياء	5	الاحتلال الفرنسي
54	الأنسية الفرنسية	15	الأحداث الاجتماعية
117 – 116	الإيديولوجية	59	الإدارة الجزائرية
	- ب -	43	الأرجل المحلية
60	البرلمانيون	43	الأرجل المحلية
122 – 120	بروتوكولات حكماء صهيون	6 – 14 – 15 – 16 – 25 – 36 – 55 –	الاستعمار
79	البروليتاريا الآسيوية الإفريقية	56 – 64 – 65 – 66 – 70 – 74 – 75 – 76 – 82 – 83 – 84	
30	البشرية	87 – 99 – 102 – 104 – 105 –	
16	البناء الاجتماعي	106 – 110 – 114 – 117 – 122	
19	البنيات الاقتصادية والاجتماعية والضريبية	65 – 66 – 107	الاستعمار الجديد
42	البيروقراطيون	695 – 66 – 107	الإسلام الجديد
35 – 19	البيروقراطية	74 – 75 – 92 – 97 – 108	الإسلام
	- ت -	26	الإطار الأخلاقي والاجتماعي

11	التقنية الاجتماعية	26	الإطار الاقتصادي والفكري
19	التنظيم النقابي	15	الإطار السياسي
26	توازن القوى	66 – 40	الأطباء الجزائريون
	- ث -	82	الإفريقانية
52	الثقافة الألمانية	108	الإفريقية
57	ثقافة الصين الجديدة	14	الأفكار والأحداث الاجتماعية
61	ثقافة القرون الوسطى	34	اقتصاد القوت
86	الثقافة الكاثوليكية	26 – 26 – 24 – 27 – 28 – 55 – 65 – 66 – 78 – 79 – 80 – 81 – 82 – 83 – 84 – 85 – 101	الإمبريالية
36 – 118	الثورة الإفريقية	65 – 66	إمبريالية اليسار
37	الثورة الثقافية	65 – 66	إمبريالية اليمين
25	السياح الزائرون	37	الثورة الثقافية في الصين
52	السوفييت	118	الثورة اليمنية
	- ش -		- ج -
29	شركات تكساس البترولية	87	الجبهة الأيديولوجية
22	الشعب	14	الجدليون

15 – 18 – 21 – 55 – 70 – 71 – 86 – 122	الشعب الجزائري	33 – 43 – 101	الجزائريون
119	الشعب الروسي	19	الجهاز الإداري والقضائي
84	الشعب الصيني	6	الجيل الجزائري الحاضر
101	شعب فيتنام		- ح -
109	الشعب الياباني	47	الحركة الإصلاحية
81	الشعوب الآسيوية	47	الحركة المسلحة
81	الشعوب الإفريقية	15 – 56	الحركيون
65 – 80	الشعوب الإفريقية الآسيوية	6	الحضور الإسلامي
64	شعوب العالم	34	حكومات إفريقية الشمالية
37 – 101	شعوب العالم الثالث	32 – 42	الحكومة الجزائرية
122	الشعوب المستعمرة		
	- ص -		- د -
115 – 116	الصحافة الوطنية	120 – 122	الدستور الاستعماري
91	الصراع الأيديولوجي	87	الدياجوجية
15	الصراع الفكري	84	الديموقراطية
91	الصراع الأيديولوجي		- ر -
15	الصراع الفكري	47	رأس المال الثوري

الصعيد الدولي 121
الصعيد الوطني 121
الصينيون 29

- ط -

الطابور الخامس 56
الطائفة القبطية 60
الطبيعة العميقة 53

قارضة الأفكار 42 – 43

القرن العشرون 29 – 30

- ك -

الكادرات الاقتصادية الاجتماعية 14
كادرات العمال 17
كادرات القضاء 17

- م -

المادية التاريخية 11
المادية الجدلية 11
الماركسية 12 – 13
الرأسمالي الفكري 39 – 40 – 41 – 43
رجال النخبة الإفريقية 82 – 85

- ز -

زراع الأرز 55
الزنجية 85

- س -

السلطة الثورية 21

- ظ -

الظاهرة الخارجية 53

- ع -

العادات البيروقراطية 19
عالم الاجتماع 14
عالم الأفكار 57
عالم الاقتصاد الحديث 6
العالم الصناعي 7
عالم الفلسفة 13
العرب 62 – 78 – 83 – 101

52	المثقفون	60 – 22	العربية
46	المجاهدون	29	عصر البخار
12	المجتمعات الاشتراكية	29	عصر الكهرباء والطاقة والفضاء
14	المجتمع الأثيني	55	علماء الاجتماع الفرنسيون
6	المجتمع الإسلامي	53	علماء الطبيعة
57	المجتمع الجزائري الجديد	29	عمال الإنارة
13	المجتمع الغربي	47	العمل الإصلاحي
28	مجرمو طهران		
17	المذهب الاقتصادي الاجتماعي		- ف -
122	المرحلة الاستعمارية	74	الفرنسيون
30	المزارعون السويديون	15 – 14	الفصحاء
35	المستشارون الأجانب	110 – 109	الفكر الإسلامي
74	المستشرقون	97	الفكر الإسلامي المعاصر
48	المستعمرون	11	الفكر الماركسي
20	المستعمرون الأغنياء	7	فكر مالك بن نبي
15	مستقبل عالم الفلسفة	11	الفلاسفة
15	المستقبل الفلسفي	13	فلسفة العالم
94 – 92 – 73	المسلمون		- ق -
13	المسيحية	43	قاتلة الأفكار

47	مسيرة الثورة	66	القادة العرب
	- ن -	53	المشكلة الاقتصادية
84 – 82	النخبة الإفريقية	79	المعسكر الإمبريالي
18	النظام القضائي	67	المعسكر الشرقي
	- هـ -	23	المنظور العسكري
113	الهرطقة	19	مناهج التفكير
110	الهولنديون	7	منهج بن نبي
	- و -	12	المنهج الهيجلي
13 – 12	الواقع الاجتماعي	30	المؤرخون
35	الواقع الاقتصادي	28	المورفولوجيا
23	وعي الذات	21	المؤسسات الوطنية
		20	المؤسسة الوطنية
	- ي -	60	الموفدون
28 – 26 – 22	اليقظة	58 – 41 – 40 – 39 – 38 – 37	ميدان الأفكار

4. مسرد المعاهدات والمؤتمرات والمنظمات

- أ -

65 – 81 – 82 – 83 منظمة الأمم المتحدة

82 – 83 – 85 منظمة الوحدة الإفريقية

80 المؤتمر الإفريقي الآسيوي

81 المؤتمر الأول للكتاب الإفريقيين الآسيويين

65 – 79 – 80 مؤتمر باندونج

80 مؤتمر الوحدة الإفريقية

82 مؤتمرات الكتاب السود

21 المؤسسات الوطنية

- هـ -

78 هيئة الأمم المتحدة

90 اليونيسكو

- ج -

27 الجبهة الأيديولوجية

- ح -

63 الحرب العالمية الثانية

- ق -

78 القمة العربية المصغرة

- م -

78 المنظمة الإفريقية

فهرس الموضوعات

تقديم 5
المقدمة 11
الفصل الأول: في البناء الاجتماعي 15
الأفكار والبناء الاجتماعي 16
المذهب الاقتصادي الاجتماعي المنتظر 21
فلنتكلم عن العارضة 26
التخطيط والتخطيط الدقيق 33
دفاعًا عن رأسمال الأفكار 40
سوق البركة 48
الفصل الثاني: في البناء الثقافي 53
نداء قسنطينة 54
مشكلة الثقافة 54
اللغة والثقافة 62
التفكير وردات الفعل 66
تأملات على قبر دينيه في بو سعادة 73
مهمة النخبة الإفريقية 80
دلالة إضراب الجامعة 88
أخوة في الإسلام 95
الفصل الثالث: نحن والاستعمار 101
أرغن الإمبريالية 102
الأسباب الصغرى والمسببات الكبرى 107
صحافة العالم الثالث 116
العبرة من جريمة 121